الأعلام من الأدباء والشعراء



أبو فراس الحمداني

الشاعر الأمير

إعداد

محمد رضا مروّة

ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية

الأعلام من الأدباء والشعراء



إعداد
محمد رضا مروة
ماجستير في اللغة العربية وآدابها

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمـــة

أبو فراس الحمداني، فارس وشاعر، ودوحة وريحانة. به انتهى الشعر حسب رأي ابن المعتز. وله فضل كبير في صنع تاريخ الدولة الحمدانية بسيفه وقلمه. بحريته وأسره. ففي كلتا الحالتين كان نبعاً ثرياً للشعر العربي، وللوجدان الانساني، وللعاطفة الصادقة. ويمثل الكبرياء في تاريخنا وشعرنا لأنه ملك، ابن ملك، لم يقل الشعر، ولم ينشده من أجل التكسب والارتزاق.

أبو فراس، الشاعر اليتيم، والشاب القوي، الذي كان نجماً يتلألأ في بلاط سيف الدولة في حلب. أمسى في لحظة أسيراً، يعيش في غياهب السجون، ويتحمل ألم الحديد والأصفاد. وبقي صابراً متصبراً. لقناعة راسخة عنده، هي أن القدر يفصل ما يشاء، ولا مرد لفصله.

وفي بحثنا هذا حاولنا أن نعثر على جديد عنده، فكان الكبرياء، والألم المدوي. والضجيج النفسي. لكن أهم ما وقعنا عليه في شعره هو ذلك الذي كتبه في ـ خرشنة ـ أثناء فترة اعتقاله، وأسره. حيث توج العاطفة وكان شاعر العواطف

والأحاسيس بلا منازع، وملك الانفعالات النفسية الملتهبة. انفعالاتٌ شدتنا إلى المصير الذي وقع فيه، وعشنا معه لحظات الألم، والصبر. وشربنا معه كأس المرارة، وقسوة الحياة. فحاكى ضمائرنا أجمل محاكاة. وأعطى حياتنا أعظم مثل بالصبر والتجلد أمام المصائب والكوارث.

أبو فراس الحمداني دوحة الشعر. ماذا عسانا أن نقول فيه؟. إن الكلمات القليلة لا تستطيع أن تعبر عن كل المضامين والأغراض والاتجاهات. لذا نترك الكلام للقارىء الكريم. علّه يكتشف معنا سراً من أسرار هذا الشاعر العظيم فنكون وإياه قد بلغنا المراد، وحققنا شيئاً ممّا ننشر.

محمد رضا مروة
بحمر - النبطية
١٩٨٨/١١/١٥

العصر العباسي

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية إثر هزيمة الأمويين في معركة الزاب. وانتقلت مقاليد السلطة والسلطان من بلاد الشام إلى بغداد. وكان العباسيون قد هيأوا لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السرية لإمام هاشمي يُخلّص الموالي عرباً وفرساً وغير فرس من حكم بني أمية ويحقق المساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، واستأثروا بها دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون في فترات مختلفة من ذلك العصر. ومضى العباسيون في هذه السياسة وتمادوا في البطش والاستبداد حتى كانت نكبة البرامكة، ونكبة بني سهل، حيث أججتا المشاعر العدائية والعدوانية بين العرب والفرس. فالعرب يريدون استرداد مجدهم الذي كان في العصر الأموي. والفرس لا يكتفون بما لهم «من مجد حادث في الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب

محقاً مما أعدّ لظهور تيار شعوبي بغيض، رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عنفاً ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعاً». ومما زاد من شعور البغضاء والعداء بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأعراق والحضارات، اعتماد المتوكل على العنصر التركي «ذلك العنصر من الرقيق الذي كثر شراءه من سمرقند وفرغانة. . . وكان جمهور الرقيق بدواً جفاة».

وكان هذا التحول من المحطات الخطيرة في تاريخ الدولة العباسية، لأن الفرس أنفسهم أصحاب حضارة ومدنية، أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة. وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقاً في رسالته التي تحدث فيها عن مناقبهم قائلاً: «الترك أصحاب عَمَد ـ خيام ـ وسكان فياف، وأرباب مواش وهم أعراب العجم. . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان، ولا شَقُّ أنهار، ولا جباية غلّات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارات والصيد، وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب الغنائم، وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره، وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم».

واستطاع الترك في فترة من الفترات أن يسيطروا على الخليفة والخلافة. وصور ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ)، فقال:

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبُغا
يقول ما قالا له كما يقول البَبَّغا

فالخليفة حينئذ كان مسلوب الارادة، أشبه ببغاء في قفص، لا ملك له ولا سلطان فالأمر كله لحاجبيه ـ وصيف وبغا ـ.

وكان من أسباب تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست في اللهو والترف والاقبال على كل متاع مادي من بناء القصور وتبذير أموال الدولة في أمور بعيدة عن سياسة الناس ومصالحهم. ومما زاد من قمع الناس ومطالبتهم بدفع ضرائب جديدة، وأموال كثيرة كانت تذهب للحجاب، والقواد والجباة وغيرهم من أصحاب السلطة والمكانة. حتى أننا نقف أمام صورة قاتمة للمبادىء التي قامت عليها الدولة العباسية وهي المساواة بين الناس. وأصبحنا نقف أمام دولة لم تعد تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية، بل أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق. وأصبحت الدولة تُسرق وتنهب من قِبَل الولاة والكتاب والوزراء، والشعب وحده

يتحمل البؤس والشقاء. ومما زاد من فساد الدولة غلبة النساء على الحكم. فكن كثيراً ما يتصرفن بحسب أهوائهن، وكن يقتنين الجواري، والضياع، والأموال الطائلة. حتى انه قال: «إن المستعين مات وفي خزائن الدولة نصف مليون دينار، على حين كان في خزائن أمه مليون دينار كاملة».

أمام هذا الواقع الضعيف والمؤلم للخلافة التي أصبحت ألعوبة بيد الترك والنساء والجواري والقيان، والكتاب، والحجاب، والأمراء والقادة. بدأت الولايات البعيدة عن بغداد بالاستقلال. فأصبحت فارس والري وأصبهان والجبل في أيدي بني بويه، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان في يد الديلم، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي بني حمدان. والمغرب وافريقيا في يد القائم بأمر الله ابن المهدي الفاطمي ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد. والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي. ولم يبقَ في يد الخليفة سوى بغداد التي استولى عليها البويهيون وولوا المطيع لله. وأصبحوا هم أصحاب الشأن. ولم يبقَ للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يُدعى له على المنابر. ومما زاد من تفكك الدولة العباسية وضعفها نشوب ثورات كثيرة استنزفت مواردها الاقتصادية، خاصة ثورتي الزنج والقرامطة.

أما الحياة الاجتماعية في العصر العباسي فكانت تتألف من ثلاث طبقات أساسية:

١ ـ **طبقة عليا**: وتتألف من كبار القوم وأصحاب السلطة والقواد والولاة ومن يلحق بهم من أمراء ورجال دولة وتجار، وأصحاب اقطاعيات كبيرة.

٢ ـ **طبقة وسطى**: وتشمل على رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين.

٣ ـ **طبقة دنيا**: وتشمل عامة الشعب من زُرّاع وحرفيين، وخدم ورقيق. ويأتي بعد هذا أهل الذمة.

وكانت حياة الطبقة الأولى والثانية حياة ترف وبذخ ونعيم، أما الثالثة فكانت تعيش في شظف العيش، وفقر وبؤس وحرمان. وكان يقع عليها عبء العمل والانتاج الصناعي والزراعي، وفي خدمة أرباب القصور، فهي التي تقوم على تقديم أسباب الرفاه والعيش المترف للطبقتين الوسطى والعليا. فكل ما تناله الطبقتان من النعيم، وإنما هو من أيدي هذه الطبقة العامة.

ومما نلاحظه في العصر العباسي كثرة الرقيق الذي كان منتشراً في كل مكان، في القصور والأكواخ، وفي الصناعات وفي الزراعة. ومنه الافريقي، والحبشي والسوداني، والتركي

والصقلبي، ومنه الصيني والخراساني والأرمني والبربري. وهذا مما زاد من تجارة الرقيق، وإقامة أسواق خاصة لها. وهذا ما يذكره اليعقوبي في جغرافيته «من أن سوق سامرّاء في القرن الثالث الهجري كانت مربعة، وبها طرق متشعبة، وفيها الخمر والغرف والحوانيت». وكان عليها موظف رسمي يُسمى ـ قيِّم الرقيق.

وكثرت الإماء والجواري في القصور حتى يقال أن المتوكل اقتنى منهن «أربعة آلاف جارية»، وعني المجتمع العباسي بفن الغناء والموسيقى وهذا ما تثبته التواريخ القديمة خاصة كتاب الأغاني، وكتاب ـ الفهرست. وكان للجواري في هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الظرف والرقة واللطف. مما جعل الشعر يكتظ بمعاني الرقة واللطف واللين.

في هذا المجتمع المشبع بكل شيء من التناقضات، انتشر المجون بشكل رهيب حتى أمعن الناس في شرب الخمر واحتسائها، والادمان عليها. دون رؤية التحريم الذي جاء في القرآن الكريم للمسكر من المشروبات. وكانت قصور الخلفاء، ومراكز الخلافة كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء، وكذلك كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب في الدولة، وتورط فيها بعض القضاة،

وكثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال - ابن دريد - الذي كان يعكف عليها عكوفاً شديداً. ويقول أبو حفص ابن شاهين: «كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العيدان المعلَّقة والشراب وقد جاوز التسعين» ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج يجد أن الشعراء أوغلوا في احتساء الخمرة، وأدمنوا عليها إدماناً شديداً. وكانوا يعقدون لها المجالس في المساء والليل والصباح. وكان يدور عليهم السقاة والساقيات من الغلمان والجواري. وكانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين. وكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلىء بحانات الخمر والسماع، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها. وكثيراً ما صور الشعراء هذه المجالس، وصوروا كذلك جمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر. من مثل قول البحتري:

إشرب على زهر الرياض يَشُوبه
زَهْرُ الخدود وزهرةُ الصَّهْبَاءِ

من قهوةٍ تُنْسِي الهمومُ وتبعث الـ
شَّوْقَ الذي قد ضَلَّ في الأحشاءِ

وكان عمال الحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء. ويقول الجاحظ: «من تمام آلة الخمار، أن يكون ذمياً وأن

يكون اسمه آذين أو مازيار أو ميثا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مختوم العنق». أما الجواري فكنّ من القيان الأجنبيات وكنّ يتفنن في الحيل التي يجذبن بها الرجال. وقد صور الجاحظ تلك الحالة بقوله: «كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تُكْتَسَبْ الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث... وبين الخلعاء والمجان من لا يُسمع منه كلمة جد ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيها بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلّا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب، ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر... القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبَّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة».

وتحولت الأديرة في هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو. وكانت تقدم لروادها الخمور المعتقة. ووصفها الشعراء بكثير من الشعر الرقيق والجميل. وسادت الروح

الشعوبية أمام هذا الافراط في العبث والمجون، وكأن نفسية الناس عادت لتتأصل في أعراقها من جديد الروح الجاهلية القديمة، وصار كل فريق يشيد بحضارته وأيامه وتاريخه، وما عنده من علوم وآداب وفنون وحضارة. وكأن مبادىء الإسلام قد ذهبت أدراج الرياح أمام هذا الجو العابث اللاهي. وما دعوته بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والجنسية بين الشعوب، إلّا مبادىء تخلى عنها الناس أمام هذا الطغيان العارم من اللهو والعبث واللامسؤولية الأخلاقية والدينية.

وممن كان يذهب هذا المذهب من الحماقة والجهالة والعداوة للعرب، وبث روح الشعوبية العمياء بين الناس، المتوكلي الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه، إذ يقول في شعوبية حاقدة عمياء.

أنا ابن الأكارم من نسل جَمّ
وحائزُ إرث ملوك العجمْ
وطالب أوتارهم جهرةً
فمن نام عن حقِّهم لم أنَمْ
فقل لبني هاشم أجمعين
هلموا إلى الخلع قبل الندمْ
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز
لأكل الضِّباب ورعي الغنمْ

فــإنــي ســأعــلو ســريــر الــمــلوك
بــحــدِّ الــحــســام وخــرْف الــقــلمْ

وأدت الشعوبية إلى الزندقة والزنادقة الذين كانوا يكرهون العرب وكل ما يتصل بهم من إسلام وغيره ويوضح ذلك الجاحظ بقوله: «إنّ عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة». هذا التشكيك بالإسلام قادهم إلى التشكيك بالنبوة وبالقرآن الكريم. وإلى رفض الديانات السماوية كلها.

وأمام هذه الزندقة والكفر والالحاد، كان الزهد والتصوف. وكانت حلقات الوعظ في مساجد بغداد وغيرها من المدن[(١)] الإسلامية قائمة وثابتة وكانت تلك الحلقات تذكر الناس بالله واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالنعيم والجحيم. واختلط الوعظ بالقصص الديني، وكثر النساك والزهاد، وابتعد هؤلاء عن الحياة الدنيا، وعاشوا حياة تبتل وعبادة، وكانت حياتهم تقشف وعبادة. حتى وصلت تلك الحالة من الزهد إلى التصوف، وأول من سلك هذا الدرب في أواخر

القرن الثاني الهجري - ابراهيم بن أدهم وشقيق البلخي - صاحب اليد الطولى «في مبدأ التوكل وإشاعته بين أوائل المتصوفة». ومعروف الكرخي الذي أشاع مبدأ المعرفة الإلهية، «وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة».

الحياة العقلية:

الحركة العلمية:

حَثَّ الإسلام أمته على طلب العلم. ومع الفتوحات التي تحققت في العراق وايران والشام ومصر، أخذ المسلمون ينهلون من علوم ومعارف وثقافات الأمم والحضارات التي رأوها. وساعدهم على ذلك كثرة التعريب. وتعلم بعض العرب لغات الأمم الأخرى. ومع انقضاء القرن الثاني الهجري حتى تكونت لدى العرب ثقافة علمية لا حصر لها، ممّا مكنهم أن يتحولوا إلى أمة علمية تعنى بكل جوانب العلم الذي كان معروفاً عند الأمم القديمة مثل الفرس والهنود والسريان واليونان، وأضافت عليه علوم القرآن والشريعة والشعر واللغة والنحو والعروض.

وفي هذا الجو العابق بالعلم والتعلم نشأت الحلقات في المدارس وكثرت. وأصبح لدينا مجموعة كبيرة من المؤلفين والكتبة. وكانت الخلافة ذاتها ترعى الأدباء والمثقفين والشعراء. فالجاحظ مثلاً أهدى كـ[illegible] إلى محمد بن عبد الملك الزيات وأعطاه خمسة آلاف دينار

وأهدى كتابه: «البيان والتبيين» إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه أيضاً خمسة آلاف دينار وأهدى كتابه: «الزرع والنخل» إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاه مثلهما خمسة آلاف دينار. وصنف للفتح بن خاقان وزير المتوكل رسالته في فضائل الترك «فأجرى عليه راتباً شهرياً من خزانة الدولة».

والذي حث الناس لطلب العلم ذلك الجو السائد في الحلقات في المساجد، وكثرة المناظرات بين العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في الكلام وفي الفقه وفي اللغة والنحو وغير ذلك من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل. وكثرت في هذا العصر الكتب والمصنفات، وكان الشباب يكتري دكاكين الوراقين للقراءة والمطالعة ويقول الجاحظ في ذلك «وقد تجد الرجل يطلب الآثار ـ الحديث ـ وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يُعدُ فقيهاً، ولا يُجْعَلُ قاضياً، فما هو إلّا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين. حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال، وبالحَرَى ألّا يمر عليه من الأيام إلّا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان».

وبجانب الوراقين كانت هناك مكتبات يختلف إليها الناس والشباب من كل مكان. وشغفهم بالعلم في ذلك العصر

قادهم إلى الرحلة من بلد إلى بلد طلباً للعلم، فكان اللغويون يرحلون إلى البوادي محتملين ما فيها من شظف العيش وخشونة في سبيل جمع اللغة. ورحل الفقهاء من مكان إلى آخر للتتلمذ على أئمة العلم، وكذلك فعل العلماء من كل علم. وكان العلم لجميع الطبقات، ونال منه الجميع القسط الوافر، في المساجد وفي الأمكنة المتخصصة للدراسة كدكاكين الوراقين وغيرها. وقد شاركت النساء في هذه الظاهرة العلمية ـ الثقافية، وكنّ يختلفن إلى حلقات المتكلمين والفقهاء وغيرهم. وبرز في الثقافة الدينية أكثر من امرأة، مثل ـ قهرمانة أم المقتدر التي كانت تجلس لسماع المظالم والحكم بين المتظالمين. ويجلس معها القضاة والعلماء حتى أن واحداً مثل الطبري كان قد أفتى بجواز ولاية المرأة القضاء. ويدل هذا على ما بلغته المرأة من التعمق في الفقه وعلوم الشريعة.

وكانت حركة النقل ناشطة، وترجم العرب علوم الحضارات الهندية والفارسية واليونان. وكان أكثر ما نقلوه عن الفرس والهند في مجال الفلك والرياضيات ونقلوا عن اليونان مجموعات من العلوم منها الرياضيات والعلوم الطبيعية. وشاركوا في عملية وضع أسس جديدة لهذا التراث. وكان العلماء ومنهم ـ يوحنا بن ماسويه ـ واضع الأسس

الصحيحة لعلم التشريح. ومحمد بن موسى الخوارزمي مكتشف الرياضيات وعلم الجبر. والذي هيأ لهذه النهضة الفكرية العلمية، رعاية الخلفاء لها. منذ أيام أبي جعفر المنصور الذي شجع على الترجمة والنقل. وأنشأ هارون الرشيد دار الحكمة، التي رعاها من بعده ابنه المأمون.

ولم تكتفِ النهضة على النقل والوضع والترجمة بل ابتكرت علوماً جديدة تدور حول اللغة العربية. وكان علماء اللغة يرحلون إلى البوادي في نجد وغيرها ليسجلوا كلمات اللغة من مواطنها الأصلية. ويرجع الفضل في إقامة صرح النحو العربي إلى مدرسة البصرة. وبعدها جاءت مدرسة الكوفة. وشاع علم البلاغة خاصة في القرن الثالث للهجرة، ونثر ابن قتيبة في كتابه: «تأويل مشكل القرآن» ملاحظات متنوعة عن الخصائص البيانية والأسلوبية، على حين ألمّ - المبرد - في كتابه - الكامل - بالكتابة والتشبيه. وإذا كانت البلاغة خطت خطوات مهمة في العصر العباسي، فإن النقد بدوره خطى خطوات مهمة ورائدة، ولكن عملية النقد لم تستطع أن تصوغ لها قوانين ونظريات، وذلك ناتج عن طبيعة العصر ذاته. ونشطت إلى ذلك، العلوم التاريخية التي شهدت نشاطاً واسعاً وعظيماً. وكان تدوين السيرة النبوية، والأحداث الإسلامية، وتاريخ الأمم والدول، وكتابة في

المدن، وفي التراجم والطبقات.

وتستوقفنا نهضة الشعر في هذا العصر. إذ ان الشعراء كانوا قد استفادوا من النظريات النقدية، والفلسفات القائمة في هذا العصر. واستفاد الشعراء من اللغـويين الذين كـانوا يجمعون اللغة، وقواعدها النحوية والصرفية والموسيقيـة. واللغة العربية بكل خصائصها الجمالية والموسيقية والصرفية والنحوية وضعت تحت أعين الناشئة وفي متناول الناس في القرن الثالث الهجـري. وتم ذلك بشكـل علمي دقيق. واستفاد منها الشعراء بشكل جيد. حتى كان العصر العباسي من أجود العصور التي قدمت شعر العرب، بأفضل وأجود صوره. ويتضح ذلك بما جادت به القرائح من تجديد في الموضوعات، وتجديد في الأسلوب. ورجوعاً إلى بعض شعراء تلك الحقبة الزمنية نتأكد من تلك الحقيقـة خاصة عند ابن الرومي - والمتنبي والبحتري، وأبي تمام، وأبي نواس، وابن المعتز، وغيرهم من الشعراء الذين أتحفوا الزمن بما جادت قرائحهم، وأعطت نفوسهم.

- إمارة بني حمدان
- أبو فراس / حياته.
- رأي النقاد فيه.

إمارة بني حمدان

ـ الحياة العقلية:

بعد ضعف الدولة العباسية، استقل آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وما إليها من سنة ٣١٧ إلى ٣٩٤ هـ. ونشأت في حلب دولة عربية أخرى هي المرداسية ٤١٤ ـ ٤٧٢ هـ. والمهم هنا رؤية الحياة العقلية التي أحاطها بعض الأمراء العباسيين الرعاية، ففي حياة المتوكل، كان للحياة العقلية مراكز أهم مواطنها: مصر والشام، العراق وجنوب فارس، خراسان وما وراء النهر، السند وأفغانستان، بلاد المغرب. والذي يعنينا من هذه المراكز بلاد الشام أثناء حكم بني حمدان، وخاصة إبان حكم سيف الدولة.

ولد علي بن حمدان سنة ٣٠٣ هـ. وهي سنة ولادة المتنبي. ومات عام ٣٥٦ بعد مقتل أبي الطيب بسنتين، وقبل مقتل أبي فراس بأقل من سنة.

انتزع حلب من يد أحمد سعيد الكلابي عام ٣٣٣ هـ. ولم يكن من الملوك أغزى منه، حتى «إنه كان قد جمع من نفض الغبار الذي يجتمع عليه في غزواته شيئاً، وعمله لبنة

بقدر الكف، وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده، فأنفذوا وصيته». وكان إلى جانب قوته أديباً شاعراً «لم يجتمع بباب أحد من الملوك، بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من الشعراء». مات في حلب، ونقل إلى ـ ميافارقين ـ ودفن في تربة أمه.

ولا شك أن هذه الحركة الأدبية التي قامت في بلاد الحمدانيين. كانت أعظم حركة في الأدب واللغة والشعر والعلوم عرفتها بلاد الشام في ذلك العصر. قال الثعالبي: «جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء، هم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين آداب السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينقده، ويثيبُ على الجيد منه فيجزل ويفضل».

ويرجع فضل نشوء تلك الحركة الثقافية الفكرية لسيف الدولة، الذي حضن في بلاطه أمراء الفكر، وأمدهم بالتشجيع والمال اللازمين لتطور أي حركة فكرية. وقد هيأته الطبيعة لذلك، وحمل الرسالة، فهو عربي يعتز بنفسه، وبنسبه التغلبي ويفخر بمجد آبائه، وأجداده. تُسكره الأحدوثة، ويطربه المدح الضارب في الآفاق. وهو فارس ميدان يجمع إلى البطولة والبأس والشجاعة، الرأفة والحلم

والكرم. قصده الشعراء والأدباء والعلماء من كلّ صوب لما عرفوا فيه من طيب المزايا، فأنفق عليهم ثروة بني حمدان المادية، لتبقى ثروة العقول. ومن أطرف ما يروى عن كرمه أنه «كان يصوغ للصلات دنانير خاصة تحمل اسمه ورسمه، يغدق منها على الشعراء. فلا عجب أن يصبح مضرب الأمثال في الجود فيئمه المعوزون وأصحاب الحاجات.

وتشجيع سيف الدولة للأدباء والشعراء والعلماء لم يكن من قبيل الهوس، والصدفة العابرة، أو حب المدح، وتعداد مآثره، ومآثر بني حمدان، بل كان نتيجة ذوق وفهم وإدراك، ولطالما أيقظ الحاسة الفنية في الشعراء بفضل إثارة المنافسات بينهم. ونجد أخبار هذه المنافسات في «اليتيمة» وسواها من الكتب الأدبية القديمة. ومن هذه الأخبار.

سأل سيف الدولة مرةً من يجيز هذا البيت:

لك جسمي تُعَلّهْ فدمي لِمَ تُجِله

فأجازه أبو فراس بقوله:

أنا إن كنت مالكاً فَلِي الأمر كلهْ

وانتقد المتنبي مرة في قوله:

وقفت وما في الموت شك لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

ورأى أن يكون عجز البيت الأول تتمة لصدر البيت الثاني، وأن يكون عجز البيت الثاني تتمة لصدر البيت الأول. وقد دار نقاش طويل حول هذا وجاء كله في ـ اليتيمة ـ.

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يوماً: «هل تعرفون اسماً ممدوداً وجمعه مقصوراً؟ فقال ابن خالويه: إني أعرف اسمين لا أقولهما إلاّ بألف دينار لئلا يؤخذا بلا شكر». ولما وعده الأمير بما طلب قال: «هما: صحراء وعذراء، فإن جمعهما صحارى وعذارى». ومثل هذه الأخبار كثير، وكلها جرت في بلاط سيف الدولة. وأهم ما يلفت النظر ما كان بين المتنبي وخصومه في ذلك البلاط. فأبو الطيب قال في سيد حلب أفضل وأرقى وأصدق شعره، بعدما فتح له الأخير المجال على مصراعيه بفضل كرمه ومزاياه الفريدة. وحقيقة تقال في هذا، إذا كان الحمداني صنيعة شعر المتنبي، فلا شك إن شعر سيد الشعراء كان شيئاً آخر لولا ذلك الممدوح. وللانصاف نقول، لولا الأمير لما وجد الشاعر، ولولا الشاعر لما عرف الأمير.

وأبو فراس، ابن عم سيف الدولة، فقد غدا بفضل رعاية هذا القريب من الشعراء الفرسان، يقول: «غزونا معه وفتحنا حصن العيون في سنة ٣٣٩، وسني إذ ذاك تسعة عشر عاماً». وهذه الرعاية، والعيش الكريم، نراهما في شعره حينما أسر في بلاد الروم، إذ ضجت رومياته بذكريات البلاط الحمداني. وفي الحنين إلى هذا البلاط يقول الخوارزمي: «وقد رأيت في حضرة أبي محمد العلوي بأصبهان، أقواماً كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة، ومنهل الصفاء عذب، وعود الشباب رطب، وذكرت بهم مآرب هنالك، وأياماً سُلبتها سلباً، ونزعت من يدي غصباً، ودهراً كأني كنت أقطعه وثباً».

ومن أهم شعراء البلاط الحمداني، أبو العباس النامي، وقد فضله سيف الدولة على جميع شعرائه، بعد المتنبي. من جميل قوله في مدح الأمير الحمداني:

إذا ما عليٌّ أمطرتْكَ سماؤه
رأيتَ العلى، أنواؤها تتحلّبُ
يرجّى ويخشى ضرّه وهو نافع
كذا البحر في أزاته متهيَّبُ
يروع ويبدو الأنس منه كأنه
الهوى، لذعه بين الجوانب يعذبُ

وأزهـــر يبيضّ النـدى منـــه في الـــرضى
وتـحمـــرّ أطـــراف الـقنـا حـين يـغـضـبُ

ومن الشعراء الذين لازموا البلاط الحمداني حتى الممات أبو الفرج الببغاء. ومنهم الوأواء الدمشقي، والأخوان أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم. القيمان على مكتبة سيف الدولة، وابن نباتة السعدي.

وتخـرج من المدرسـة الحمدانيـة في حلب أبـو بكـر الخوارزمي، والقاضي أبو الحسن الجرجاني. وكان للغة والنحو المجال الواسع في هذا البلاط بعد أن ضم بين جنبيه علماء أمثال أبو علي الفارسي، وتلميذه ابن جنى الذي يقول فيه المتنبي: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس». وابن خالويه الذي كان بينه وبين المتنبي محاسدة وخصام. وجذب بلاط سيف الدولة الفارابي الفيلسوف الكبير، وقد بقي في الشام حتى وافته المنية عام ٣٣٩ هـ. وذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء «أن سيف الدولة أحاط برعايته ومعونته أربعة وعشرين طبيباً، يعطيهم لكل عمل عطاء. منهم عيسى الرَّقي الذي كان ينال «أربعة أرزاق: رزقاً بسبب الطب، ورزقاً بسبب ترجمة الكتب من السريانية إلى العربية، ورزقين بسبب علمين آخرين».

وكان لهذه المدرسة فضل كبير على فيلسوف الشعر أبي العلاء المعري الذي استفاد من التراث الفكري، والعقلي الذي تركه سيف الدولة بعد مماته، ولأن الحركة العلمية ـ العقلية، الفكرية ـ الفلسفية التي أسسها سيف الدولة بقيت حية في أيام المعري ذاته. رغم موت سيف الدولة، وولادة أبي العلاء بعد وفاته بثماني سنوات أي في سنة ٣٦٣ هـ. استفـاد المعـري من الجـو الثقـافي العـام الـذي تـركـه الحمدانيون، والذي انتشر في محيط بلاد الشام كلها.

ـ أبو فراس الحمداني ـ

(٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ) (٩٣٢ ـ ٩٦٨ م)

ينتهي نسب أبي فراس الحمداني إلى العرب من جهة أبيه، وإلى الروم من جهة أمه. وقد صرح بذلك في إحدى قصائده بقوله:

إذا خِـفْتُ مَـنْ أخـوالِيَ الـرومِ خِـطةً
تخـوّفتُ من أعمـامي العُـرْبِ أربـعـا

اسمه الحارث بن سعيد بن حمدان. ولقبه أبو فراس. ولد في الموصل سنة ٣٢٠ هـ ٩٣٢ م. ونشأ يتيم الأب، إذ أنّ والده اغتيل في عام ٣٢٣ هـ. وكان عمره آنذاك ثلاثة أعوام. وتذكر الروايات حديث مقتل والده وتقول: إن حمدان جد الشاعر، وقد عرف بالطموح، لما رأى تسرب الضعف إلى جسم الدولة العباسية في أيامه، حدثته نفسه بالاستيلاء على بعض مقاطعاتها، على أن الموت لم يمهله، فقضى قبل تحقيق أمنيته. فإذا بابنه عبد الله والد سيف الدولة، يستولي على الموصل ويورثها لابنه ناصر الدولة الحسن. فما كان من سعيد، والد أبي فراس، إلّا أن سعى مع الراضي بالله لأجل

توليه الموصل، وديار ربيعة. ولكنه عندما أراد دخولها، لم يتردد ابن أخيه ناصر الدولة من قتله.

وعندما استولى سيف الدولة على مقاليد الدولة الحمدانية، أحاط ابن عمه اليتيم بالعطف والحنان، والرعاية والتربية. حتى أنساه شبح الجريمة، وجعله يصفح عن ابن عمه القاتل. وقد صرح الشاعر نفسه بذلك العطف والرعاية التي أحاطه بهما سيف الدولة، ويقول مخاطباً سيد حلب:

إذ أنت سيدي الذي
ربيتني، وأبي، سعيد

ويقول أيضاً:

هيهاتِ، لا أجحدُ النعماء مُنعمها
خلفت، يا ابن أبي الهيجاء، فيَّ أبي

ويقول في المعنى نفسه:

أراني كيف اكتسبُ المعالي
وأعطاني على الدهر الذماما
وربّاني ففقتُ به البرايا
وأنشأني فسدت به الأناما.

وبالرغم من هذا الثناء، والاعتراف بالفضل والجميل. فإن الخلاف بين الحمدانيين لم يمح أثر الجروح الماضية.

وكانت الكراهية لفرع الشاعر بادية وواضحة، وقد برزت في مواقف كثيرة. فخشية سيف الدولة، وناصر الدولة كانت دائمة من بروز نجم أبي فراس في مضمار السياسة والأدب. وكانا يعملان دونه ودون ذلك. فكان لهذه التصرفات صدى عجيباً، مجبولاً بالمرارة في نفس الشاعر، ونسمع دخائل نفسه حينما يبوح أحياناً بتلك المرارات. ومن قوله في هذا:

تمنيتم أن تفقدوني وإنما
تمنيتم أن تفقدوا العزّ أصيدا

إن الحب الظاهر بين سيف الدولة والشاعر، لم يكن كمثيله في الدخائل والصدور. بل كان هذا الود قائماً على عدم الثقة والاطمئنان. وجاء في ديوان أبي فراس أن أمه عرّفت ابنها، وهو لا يزال فتى، إلى مواطن الحميدانيين. ولكنه استقر أخيراً في منبج. التي يصفها بشعر جميل جاء فيه:

قف في رسوم المستجا
ب وحيِّ اكناف المُصلّى
أوْطنتها زمن الصبا
وجعلتُ منبج لي محلاّ
حيث ألتفت رأيت ماءً
سابحاً، وسكنت ظلاً

والماء يفصل بين زهر
الروض في الشطين فصلا
كبساط وشيٍ جرَّدتْ
أيدي القيون عليه نصلا

وتربى على أيدي علماء زمانه، وتعهده فرسان وأساتذة فعلموه الفروسية وأساليبها. كما علموه العلوم المعروفة في عهده، فنشأ مغواراً مقداماً. ولطالما شكا وتألم، إذا لم يكن له في الغزو نصيب. ويقول في هذا مخاطباً سيف الدولة:

لا تُشغَلنَّ فأرضُ الشامِ تحرسُهُ
إنَّ الشآمُ على من حلّه حرَمُ
لا تحرمنّيَ سيف الدين صحبته
فهي الحياةُ التي تحيا بها الأممُ[1]

وفي عام ٣٣٦ هـ أقطع أمير حلب ـ سيف الدولة ـ الشاعر الفارس ضيعة بأعمال منبج، تغل ألفي دينار في السنة. ثم ولاه بعد ذلك على منبج ـ وهو حصن حلب المنيع ـ وحرّان وأعمالهما جميعاً. فكان على أبي فراس، أن يكون متيقظاً، متنبهاً لحركات الروم من جهة، ولحركات البدو من جهة ثانية. وكلا العدوين قوي، وطامع بأرض الدولة الحمدانية.

---

(١) الضمير في صحبته يعود لسيف الدولة.

ومن أخباره في معاركه مع البدو قيل إنه: «لما انصرف سيف الدولة وانقطع أبو فراس في العرب على غير الطريق التي سلكها الأمير... فوقعت عليه خيول بني قشير وهو في خمسة عشر فارساً، وقد أطمعها ما جرى ومعها طرائد، وقلائع قد أخذتها من شذاد العساكر، فشد عليهم، وانتزع ما معهم حتى حجزه الليل وأسر سبعة منهم، وأخذ عدة خيل وفرقها على أصحابه وأنشأ يقول:

أيا عجباً لأمر بني قُشيرٍ
أرعوانا، وقالوا: القومُ قُلُّ
وكانوا الكثير يومئذٍ ولكنْ
كثرنا، إذا تعاركنا، وقلُّوا
فولَّوا للقنا والبيض فيهم
وفي جيرانهم نَهَلٌ وَعَلٌّ
ورحنا بالقلائع، كُلُّ نهدٍ
مُطلٍ، فوقه نهدٌ مُطِلُّ

وتحدثنا الروايات التاريخية أن بني زرارة تعرضت لبعض نواحي الشام فخرج إليهم أبو فراس، وحاربهم وانتصر، وأسر البعض منهم. فخرجت أم بسام في نسوة من فتيات العرب. فوهب لهم المال، وأطلق أسرى بني كعب وقال في ذلك قصيدة جاء فيها:

حارِ نزعناه قسراً في بيوتكمُ
والخيل تعصبُ فرساناً بفرسانِ
بالمرج، إذ أمّ بسام تناشدني:
بناتُ عمّك يا حارِ بن حمدان
فبتُ أثني صدور الخيل ساهمةً
بكلّ مضطغن بالحقد ملآنِ
ونحن قومٌ إذا عدنا بسيئةٍ
على العشيرة، أعقبنا بإحسانِ

وعلى رغم البلاء الذي كان أبو فراس يبلوه في سبيل الدولة الحمدانية من أجل إرساء دعائمها، والقضاء على خصومها، والعابثين بأمنها من قبائل البدو والروم الطامعين. فإن الشك بقي بين الأمير والشاعر. وظلت الريبة بينهما تفرض على القلوب مساوىء الأيام السالفة.

وتلعب الصدف، وتشاء الظروف أن يلتقي سيف الدولة بأبي الطيب المتنبي، ويحمله إلى بلاطه. فتقوم قائمة شعراء البلاط عامة، وأبو فراس خاصة. لقدوم جبار الشعراء. وتبدأ المشاحنات، والحزازات، وتشحن النفوس. ويتنافر الناس، ويصبح البلاط حزبان. ممّا جعل الشاعر عرضة لسهام الخصُوم، ولإساءات بني حمدان، أبناء عمه. ويقول أبو فراس ناقماً على ابن عمه:

وكم لك عندي من غدرةٍ
وقولٍ تكذِّبُه بالفَعالْ
ووعد يُعذبُ فيه الكريمُ
إما بخُلفٍ وإما مِطالْ
صبرنا لسخطك صبر الكرام
فهذا رضاك فهل من نوالْ
وذقنا مرارة كأس الصدود
فأين حلاوة كأس الوصالْ

إلَّا أن هذه النقمة بقيت في حدود الكلام. ويرجع ذلك إلى ضعف الشاعر بالنسبة إلى ابن عمه. وفكر بالاتصال بأعداء قومه وأقاربه. بني طُغْج، وهذا ما يدل عليه قوله لغلامه:

أيا منصورُ خانتني ثقاتي
فمهد ليْ على العدويِّ سرجي
بنو حمدان حسادي جميعاً
فما لي لا أروز بنيّ طُغْجَ

وبقي الخلاف مستمراً بين الشاعر وبني حمدان، أبناء عمه. وربما كانوا قد اتفقوا على مخاصمته ومضايقته. فيقول لسيف الدولة:

قــد كنت عـدتي التي أســطو بهـا
ويـدي إذا اشتـد الـزمـان وسـاعـدي
فَــرُمِيْتُ مـنـك بغـيــر مــا أمَّلتــه
والـمــرءُ يـشــرق بــالــزلال الـبــاردِ
فـصبــرتُ كــالــولــد الـتقـي لـبــرِّه
أغضي عـلى ألم لـضــرب الــوالــد

أبو فراس في الأسر

تذكر الروايات التاريخية أن أبا فراس وقع في أسر الروم. لكن الخلاف يكمن في الروايات المتناقضة حول أسره. فمن الرواة من قال انه أسر مرة واحدة ومنهم من رأى أنه أسر مرتين. ويورد أصحاب الرأي الثاني أنه في العام ٣٤٨ هـ خرج لمحاربة البيزنتيين عند مغارة الكحل، فأسر ونقل إلى خرشنة ـ قلعة ببلاد الروم قرب ملطية يجري من تحتها الفرات ـ وفيها حصن يطل على النهر، ففر الأسير بنفسه. ويقول ابن خِلّكان: «إن الشاعر ركب جواده، وركضه برجله، فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات» ولكن حادثاً من هذا النوع، أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة. وقيل: إن سيف الدولة فداه.

وفي عام ٣٥١ هـ هاجم الروم منبج فأسر أبو فراس. فنقلوه إلى القسطنطينية حيث بقي أربع سنوات. كتب خلالها رومياته. ثم افتدى عام ٣٥٥ هـ. أما الرأي الثاني فيرى أصحابه «أن أبا فراس عند أسره، نقله الروم إلى خرشنة، ومنها إلى القسطنطينية عام ٣٤٨ هـ. وعلى هذا تكون مدة الأسر سبع سنوات لا أربعاً. وهناك فئة ثالثة تقول ان الشاعر

أسر مرة واحدة. ودام أسره أربع سنوات فقط. ويذكر ابن خالويه «ان ابن أخت ملك الروم، خرج في ألف فارس إلى نواحي منبج، فصادف الأمير أبا فراس يتصيد، ومعه سبعون فارساً، فأراده أصحابه على الهزيمة، فأبى وثبت، حتى أثخن بالجراح وأسر» وقد ذكر بشعره، أنّ نصلاً أصابه في فخذه، في أثناء هذه المعركة، فقال:

وقد عرفتْ وقعَ المسامير مهجتي
وشُقِّقَ عن زرق النصول إهابي

فنقل جريحاً إلى خرشنة، فقال معزياً نفسه:

إن زرتُ خرشنة أسيراً
فلقد حللتُ بها مغيرا

ولقد رأيتُ النار تنتهب
ب المنازل والقصورا

ولقد رأيتَ السَّبْيَ يجلـ
ـب نحونا حُوّا وحورا

إنْ طال ليلي في ذراك
لقد نعمت به قصيرا

صبراً لعلَّ الله يفتح
هذه[1] فتحاً يسيرا

---

(١) إشارة إلى قلعة خرشنة.

من كان مثلي لم يبت
إلّا أسيرا أو أميرا

وبعد هذا تبدأ حرب من نوع آخر بين الروم وسيف الدولة. هي الحرب الباردة. ويبدأ العض على الأصابع، من أجل أن يسترد كل فريق أسراه. وكان أبو فراس كبش المحرقة في هذه الحرب، كما كان في المعركة التي جرح فيها وأسر. وعرض الروم على الشاعر حريته، لقاء حرية أخي القائد ـ البطريق بودرس ـ. وهو بين يدي سيف الدولة منذ العام ٣٤٣ هـ. قال ابن خالويه: «كان هذا الأسير البيزنتي في أسر سيف الدولة منذ موقعة الحدث، فطلب القائد من أبي فراس أن يدفع فداءه، أو أن يسعى في إخراج أخيه. ولجزع الشاعر من الأسر كتب إلى سيف الدولة بذلك في أولى رومياته سنة ٣٥١ هـ ٩٦٢ م، ويطلب منه أن يفديه، وينهي عذابه.

دعوتك للجفن القريح المسهَّد
لديَّ، وللنوم القليل المشرَّدِ

ويخبره في هذه القصيدة عن رغبة ملك الروم في إطلاق سراحه، لقاء إطلاق سراح ابن أخت الملك ـ بودرس.

على أن صاحب حلب ادعى أنه يرغب في افتداء أسرى

المسلمين دفعة واحدة وعامل الروم أبا فراس، معاملة حسنة في بادىء الأمر، لاعتقادهم أن سيف الدولة سيفتدي ابن عمه ويطلق أسيرهم. وبلغ الشاعر وهو في سجنه أن الروم قالوا: «ما أسرنا أحداً لم نسلب ثيابه وسلاحه، غير أبي فراس» فأثر وثار، وقال في أشهر قصائده التي كتبها في الأسر:

يمنــون أن أخلوا ثيــابي، وإنمــا
علـيّ ثيــابٌ مـن دمــائهـم حُـمْـرُ

وقــائـم سيـفٍ فيـهم انــدقَّ نـصـله
وأعقـاب رمـحٍ فيهم حـطم الصـدرُ

وهذه الرومية وإن خلت من طلب الفداء، فإنها لم تخل من الشكوى والتشكي. والافتخار البارع، والنسب الرقيق. وفيها نفس أبي فراس القوية. وبعدها تبدأ مرحلة جديدة من حياة الشاعر، ويبدأ اتصاله بأمه بعد ثقل الجراح عليه سواءً كـانت نفسية أم جسـديـة. حيث الجـراح الـدامية والآلام الموجعة، والساعات الثقيلة، والليالي المرّة، داعياً إياها إلى الصبر وإلى طلب الشفاعة عند سيف الدولة.

مـصــابي جـليـلٌ والعــزاءُ جـمـيــلُ
وظـنــي بــأنّ الله ســوف يـديــلُ

والملاحظ في الروميات أنها بنت الألم ونتيجته. وهذا شيء طبيعي لدى إنسان متعلق بالأمومة، حتى أصبح أثرها في نفسه قوياً. وأثره في نفسها أقوى حتى وافتها المنية. ويكتب إليها مرة ثانية، ويوصيها بالصبر، وأنه لولاها لما طلب الفداء، ولما خاف الموت. يقول الثعالبي «بلغ أبا فراس أن والدته قصدت سيف الدولة في منبج تكلمه في المفاداة، وتتضرع إليه فلم يكن عنده ما رجت من حسن الايجاب. لا بل رأى أن يعامل أسرى الروم لديه بالقسوة، فلقي أسرى العرب عند الروم من جراء ذلك ـ وأبو فراس منهم ـ المعاملة نفسها». وفي ذلك يقول ابن خالويه: «ووافق ذلك أن البطارقة قيّدوا بحلب، فقيّد أبو فراس بخرشنة».

ورأت الوالدة الأمر قد عظم، فاعتلت من الحسرة، فبلغ ذلك أبا فراس، فكتب إلى سيف الدولة بهائيته الشهيرة.

يا حسرة ما أكاد أحملها
آخرها مزعج وأولها

وحاول الشاعر الكثير لحمل سيف الدولة على افتدائه. لكن الأمير بقي مصم الأذان وعلى قسوته. وتغلغل الداء في جسد الأم المنتظرة الصابرة، حتى أودى بحياتها. فرثاها ابنها الأسير بأبيات فيها الفاجعة، والنغم الحزين:

أيـا أم الأسـيـر سـقـاكِ غـيـثٌ
بـكـرهٍ مـنـك مـا لـقيَ الأسـيـرُ
وقـد ذُقْـتِ الـمـنـايـا والـرزايـا
ولا ولـد لـديـك ولا عـشـيـرُ

وعندما أيقن الشاعر أن سيف الدولة يماطل في افتدائه. أرسل إليه طالب منه أن يراسل أهل خراسان. وفي هذا يقول الثعالبي: «كتب أبو فراس إلى سيف الدولة يقول: مفاداتي إن تعذرت عليك، فأذن لي في مكاتبة أهل خراسان، ومراسلتهم ليفادوني، وينوبوا عنك في أمري. فأجابه سيف الدولة: ومن يعرفك بخراسان. فآلمت الشاعر نسبته إلى الخمول، فكتب إليه:

فـلا تـنـسـبـنَّ إلـيَّ الـخـمـولَ
عـلـيـك أقـمـت فـلـم أغـتـرب
وأصبحت مـنـك فـإن كـان فضـلٌ
وإن كـان نـقـصٌ فـأنـت الـسـبـب

وذكر ابن خالويه هذه الحادثة أيضاً، فقال: «تأخرت كتب سيف الدولة عن أبي فراس وهو في الأسر، وذلك أنه بلغه أن بعض الأسرى قال: إنّ ثقل هذا المال على الأمير، كاتَبْنا فيه صاحب خراسان، وغيره من الملوك، فاتهم سيف الدولة أبا

فراس بهذا القول لضمانه المال للروم وقال: أين يعرفه أهل خراسان».

وبقي الشاعر في الأسر حتى اليوم الأول من رجب ٣٥٥ هـ حزيران ٩٦٦ م، إذ خرج أبو فراس بثلاثة الاف أسير إلى خرشنة ـ كما يقول أحد المؤرخين ـ ووصل إليها سيف الدولة بأسراه، فدفع ستمائة ألف دينار رومية، وتم الفداء، بعد أربع سنوات من أسر الشاعر وعذابه. وبعد هذه الفترة مرض سيف الدولة، واشتدت آلامه، وبدأ نجم دولته بالأفول والانحدار، وتناسى ما بينه وبين الشاعر من كتب سوداء، فولاه حمص. لكن القدر كان بالمرصاد للأمير، ولم يمهله طويلاً، وأغمض عينيه سنة ٩٦٧ م. صفر ٣٥٦ هـ. وكان أبو المعالي صغيراً عند موت والده، لذلك جعل سيف الدولة الوصاية عليه، لغلامه التركي ـ فرغويه ـ. وحاول أبو فراس أن يستولي على الملك، الذي بدأ يتهاوى. ولكنه سقط قتيلاً عند اشتباكه مع فرغويه في معركة قرب صدد. وكان ذلك في ٤ نيسان من عام ٩٦٨ ـ جمادى الأول ٣٥٧ هـ.

وروى ابن خالويه شعراً له. قاله عند موته يخاطب به إبْنته امرأة أبي العشائر الحمداني:

أُبُنيتي لا تجزعي
كل الأنام إلى ذهابِ
نوحي عليّ بحسرةٍ
من خلف سترك والحجابِ
قولي إذا كلمتني
وعييتُ عن ردِّ الجواب
زينُ الشباب أبو فراس
لم يمتع بالشباب

وكلمة حق تقال أن أبا فراس كان يمثل الفتوة العربية العريقة في الكثير من ألوانها. فمن حزم وشجاعة وجرأة، إلى وقار وعفة وذكاء. أضف إلى ذلك الخلق الكريم، والترفع عن الدنايا. ولا شك أن الفروسية تبقى في طليعة المزايا الحميدة عنده. وقد ذكرها في مواقع كثيرة من قصائده.

رأي النقاد فيه:

تشعبت الآراء، وكثرت الأقوال فيه. وجعله بعض النقاد في المقام الرفيع بين الشعراء. قال الصاحب بن عباد: «بدىء الشعر بملك وختم بملك». يعني امرأ القيس، وأبا فراس. وقال الثعالبي في يتيمة الدهر: «وشعره مشهور وسائر بين الحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع، وسمة

الظرف، وعزة الملك. ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلاّ في شعر عبد الله بن المعتز، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونَقَدة الكلام».

وقال ابن رشيق: «أما أبو الطيب المتنبي فلم يذكر معه شاعر إلاّ أبو فراس وحده. ولولا مكانه من السلطان لأخاه».

وقال ابن شرف القيرواني في الروميات: «وأما أبو فراس ابن حمدان ففارس هذا الميدان... فله الفخريات التي لا تعارض، والأسريات التي لا تناهض».

وكان أبو فراس يعرف قيمة شعره، وشدة أسره. ولهذا افتخر به. وشبه شعره وقصائده باللؤلؤ والزبرجد. ولكنه بقي دون مستوى المتنبي، ولهذا ترفع المتنبي عن مدحه، لا سيما والحمدانيون غير راغبين في ذلك. لما كان بينهم وبين أبي فراس من كره وضغينة. وديوان المتنبي فيه الكثير من التعريض بشعراء البلاط الحمداني. ولأبي فراس نصيب وافر فيه. وللانصاف نقول أن عاطفة أبو فراس فاقت المتنبي، إلاّ أن المتنبي فاقه عبقرية. ولا نستغرب هذا. فأبو فراس نفسه نفى عن نفسه صفة الشاعرية بقوله: «وما أنا مداح ولا أنا شاعر». وما نظمه كان صدى لعاطفته. وإنه لم يتخذ الشعر حرفة أو صناعة. وهذا لم يمنعه من مجاراة الشعراء والتعرض لهم، كما يقول: «وإنني متعرض في الشعر للشعراء».

الفخر والمديح

كان شعر المديح في الجاهلية مجموعة من الفضائل الإنسانية التي لا تجري عليها أحكام التغيير والتعديل، وقد أحصاها قدامة بن جعفر، فوجد أنها تنحصر في أربع فضائل هي: العقل والعفة والعدل والشجاعة. وهذه الفضائل استمرت من غير شك في شعر المديح العربي في العصور المختلفة، ولكن دخلتها تفريعات كثيرة وزيادات متنوعة منذ ظهور الإسلام. فابن رشيق يلاحظ «أن فضيلة العقل قد تفرعت إلى أنواع منها: ثقافة المعرفة، والحياء وغير ذلك. أما الشجاعة فقد دخلت فيها: الحماية، والأخذ بالثأر، والدفع عن الجار، والنكاية في العدو، وقتل الأقران والمهابة، والسير في المهامة والقفار الموحشة، وما شاكل ذلك. وأما العدل فقد أصبحت فيه: السماحة، والتغابن، والانظلام، والتبرع بالنائل، والإجابة للسائل، وقرى الأضياف، وما جانس هذه الأشياء».

والفخر يشبه المديح إلى حد كبير. وفيه يبرز الشاعر فضائله، ومكارم قومه، وقوتهم وبأسهم. وتتلاقى فيه الذات الفردية، مع الأنا الجماعية. حتى ليبدو الفخر والمديح موضوعاً واحداً.

إلّا أننا نقف أولاً عند الفخر لدى أبي فراس. وفيه تتجسد معاني الجماعة من قبيلة أو عشيرة، من حيث قوتها ومنعتها، وعزة أهلها:

ألم ترنا أعزَّ الناس جاراً
وأمرعهم وأمنعهم جناباً[1]
لنا الجبل المطلُّ على نزارٍ
حللنا النجدَ منه والهضابا[2]
وقد علمتْ ربيعةُ بل نزارٌ
بأنّا الرأسُ والناسُ الذنابى[3]

ومن أقواله في الفخر، بذاته وأهله.

لنا الدنيا، فما شئنا حلالٌ
لساكنها، وما شئنا حرامُ
وينفذ أمرُنا في كلِّ حيٍّ
فيدنيه ويقصيه الكلامُ

ليس هذا فقط بل إنه يناضل عن أحساب قومه وأنسابهم. لأنه واحد منهم فإن ارتفعوا ارتفع، وإن انخفضوا انخفض.

---

(١) أمرعهم: أخصبهم.

(٢) النجد: المكان المرتفع من الأرض. الهضاب: الواحدة هضبة، الجبل المنبسط.

(٣) ربيعة ونزار من القبائل العربية.

وأهله أصحاب عزّ وقوة. وبأس ومكرمات.

أنــاضــلُ عن أحســاب قــومي بفـضلِهِ
وأفـخــر حـتـى لا أرى مَـنْ يــفــاخــرُ

لـنــا أوَّلٌ فـي الــمـكــرمــاتِ، وآخــرُ
وبــاطــنُ مَـجْـدٍ تـغـلبـيٌّ، وظــاهــرُ

وهــلْ يَـطْلُبُ العــزَّ الـذي هــو غــائبٌ
ويتــركُ ذا العــزَّ الــذي هــو حــاضــرُ

أنـا الحـارثُ المختـار من نسـلِ حَـارثٍ
إذا لم يَسُــدْ في القـوم إلّا الأخــايــرُ[1]

وبعد هذا الفخر بالحسب وأهله. يبرز الشاعر مآثر قومه، وهي كثيرة جداً. ويكون الانتماء إلى الأصول القديمة هدفاً من أهدافه. وهذا الانتماء لا بد له من مآثرٍ وأيامٍ ومواقعٍ، ومحطات في التاريخ القديم والحديث. وتلك المحطات التاريخية هي الانتصارات التي حققتها القبيلة مجتمعة على أعدائها.

وللحروب أسبابها، إذ أنهم لم يشنوا غارة، أو يخوضوا معــركــة من أجــل السلب والنهب، بــل من أجــل الحق والمكرمات والفضائل.

(١) الحارث: هو الشاعر نفسه أي - الحارث بن سعيد - الأخاير: الأفاضل.

وإذا كان التاريخ ملهم الشعراء والمبدعين، فإن الشاعر هنا يستخدمه كأداة لإبراز منعتهم وقوتهم منذ القدم. وإنّ جذورهم ضاربة في الماضي وما الحاضر إلاَّ نتيجة لذلك الماضي. والرفعة والمكانة صفتان اتصفا بهما قديماً وحديثاً. وبهذا يركز على جدوده الأقدمين الذين زرعوا فكان الحاضر. والكرم صفة من صفاتهم، حتى غدوا مثلاً وعلماً يهتدي به الناس.

فجدي الذي لَمَّ العشيرةَ جودُهُ
وقد طار فيها بالتفرق طائرُ[1]

تَحَمَّلَ قتلاها، وسارقَ دِيَّاتِها
حَمُوْلٌ لمّا جرتْ عليه الجرائرُ[2]

وَدَى مائةً لولاهُ جُزَّتْ دماؤهم
مواردَ موتٍ مالهنَّ مصادرُ

وجدي الذي انتاشَ الديارَ وأهلها
وللدهر نابٌ فيهُمُ وأظافرُ

ثلاثة أعوامٍ يكابدُ مَحْلَهَا
أَشَمَّ، طويلُ الساعدين عراعرُ

---

(١) يقول إن جده وحّد العشيرة بكرمه وجوده.

(٢) دياتها: جمع دية وهي الفدية. حمول: صبور.

والكرم صفة متأصلة بأهله وقومه. فإذا كان جده على هذه الدرجة الكبيرة من الجود. فإنّ عمه ورث ذلك الإرث، وحمله. وبقي وفياً لعادات اكتسبها عن أهله وآبائه. وهو الذي رفع عن الأعراب ضريبة كانوا يدفعونها قسراً لغيره.

أماطَ عن الأعرابِ ذُلَّ إتاوةٍ
تَسَاوَى البوادي عندها والحواضر[١]

وقد جمع جده إلى جانب الكرم، صفة الشجاعة والمروءة. والنجدة ومساعدة المحتاجين. وبهذه الصفات استطاع أن ينال المجد برغم وداعة جسده. فهو أسدٌ هصور، يدافع عن الثغور والمواقع من أجل الإسلام والمسلمين. ويحارب الروم الطامعين بأرض الإسلام. وقد بنى جده ـ حمدون ـ سور ملطية ـ ليحمي البلاد والعباد.

وكيف ينالُ المجدُ والجسمُ وادعٌ
وكيفَ يُحازُ الحمدُ والوفرُ وافرُ

أسا داءَ ثَغْرٍ كانَ أعيا دواؤها
وفي قلبِ ملكِ الروم داءٌ مخامرُ

بنى ثغرها الباقي على الدهر ذِكْرُهُ
نتائجُ فيها السابقاتُ الضوامرُ[٢]

---

(١) أماط: أبعد ورفع. الإتاوة: الخراج.

(٢) يقول في هذا البيت أنّ بني حمدان أصحاب مآثر كثيرة منها. بناء حمدون لسور ملطية.

ولـمـا ألـمـتْ بـالـديـاريـن أزمـةٌ
جـلاها ونـابُ الموتِ بـالموتِ كـاشـرُ[1]

وصفات الكرم والجود، والقوة والشجاعة. تأصلت في أعمامه. ومنهم سيف الدولة الذي بقي زمناً طويلاً يحارب الروم، ويدافع عن الثغور ويقضي على ثورات الأعراب التي لا مبدأ لها سوى الإغارة والسلب. وكان لأعمامه الباقين أيام مهمة في صنع تاريخ دولة بني حمدان. وإنهم حجوا العلم والقوة. والحلم والبأس.

وهناك قصائد كثيرة يفخر فيها الشاعر بأعمامه، وبقومه. فعمه كان قد قتل الوزير ـ العباس بن المعتضدي ـ. وأذاق أهله كأس الحمام. وأذلّ تميماً بعد عزّ لها، لأنها بغت وطغت. وقمع ثورة ـ الشاري ـ الذي ثار ضد المعتضد.

وفي هذا يقول:

وعمي الـذي أردى الـوزيـرَ وفـاتـكـاً
ومـا الفـارسُ الفتّـاكُ إلاّ المجـاهـرُ[2]

(١) يقول إن جده استطاع أن يتغلب على الأزمات بالرغم من الموت المتربص به.

(٢) الوزير هو العباس بن المعتضدي.

أذلَّ تـميـمـاً بعـدَ عِـزٍّ وطـالـمـا
أذلَّ بنـا البـاغـي، وَعَـزَّ المـجـاورُ[1]
وَصَـدَّقَ فـي بَكْـرٍ مـواعيـدَ ضَيْفِـهِ
وَثَـوَّرَ بـابن الغَمْـرِ والنَّقْـعِ ثـائـرُ[2]
وأقبـل بـالـشـاري يُـقـادُ أمـامَـهُ
وللقيـد في كلتـا يـديـه ضفـائـرُ[3]
وشنَّ على ذي الخـال خيـلاً تنـاهبتْ
سـمـاوةُ كَـلْبٍ بـينـهـا وعـراعـرُ[4]

وإن أفعاله لم تبق على صعيد الجزيرة العربية، بل تعدى الأطر الجغرافية وهاجم مصر، وانتصر، وفتح تلك الديار.

وَأَجْلَتْ لـه عن فتـح مِصْـرٍ سحـائبُ
مِنَ الطعنِ سُقْيَاهَا المنايا الحواضِـرُ[5]
تخـالط فيـهـا الجـحفـلان كـلاهـمـا
فـغِبْـنَ القنـا عَنَّـا وَنُـبْـنَ البـواتـرُ[6]

---

(١) الباغي: الظالم.

(٢) ابن الغمر: هو أبو جعفر بن حمدون. كان قد أسر ثم أنقذ. ثور: نادى يا لثاراته.

(٣) الشاري: هو هارون الشاري الذي ثار على المعتضد

(٤) ذو الخال: هزمه الحسين بن حمدان في سوريا.

(٥) المنايا: الموت.

(٦) الجحفلان: الجيشان الكبيران.

وعمه هذا له في كل مكان موقعة. وكأنه خلق للحرب فقط. إذ ان الشاعر يعدد المواقع والمعارك التي خاضها عمه، وانتصر فيها. وكأنّ هذه القصيدة سجلٌ تاريخي يبين فيه الشاعر قوة قومه، وشدة بأسهم. وكان النصر بجانب عمه وقومه، لأنهم أصحاب حق ودين. وأعمامه هم حماة الملك وحماة الديار والعباد. وفي هذا يقول:

وعمي الذي سَلَّتْ بنجدٍ سيوفُهُ
فرَوَّعَ بالغورَيْنِ مَنْ هو غائرُ[١]

وساق إلى ابن الديوداذ كتيبةً
لها لُجَبٌ، مِنْ دونها وزماجرُ[٢]

وعميَّ الذي سَمَّتْه قَيْسٌ مُزَرفَناً
وقد شجرتْ فيه الرماحُ الشواجرُ[٣]

وعمي الذي ذَلَّتْ حبيبٌ لسيفِهِ
وكانتْ ومرعاها مِنَ العِزِّ ناضرُ[٤]

وعميَّ الحرون عند كلِّ كتيبةٍ
تَخِفُّ جبالٌ، وهو الموتُ صابرُ[٥]

(١) روّع: أخاف. الغورين: اسم مكان.
(٢) ابن الديوداذ: هو يوسف بن الديوداذ الخارج بأذربيجان.
(٣) مزرفن: سُمّي كذلك لاختراقه الرماح يوم العقبة.
(٤) أي أن عمه تغلب على قبيلة حبيب، وذلت بعد عزها.
(٥) الحرون: لقب سليمان بن حمدان.

أولئـك أعـمـامـي ووالـدي الـذي
حمى جنبـاتِ المُلكِ والـملكُ شـاغـرُ
غـزا الـرومَ لم يَقْصِـدْ جـوانبُ غِـرَّةٍ
ولا سَـبَقَـتْـهُ بـالـمـراد الـنـذائـرُ

إنـه في هذه الأبيـات يرسم صـورة لعمـه الحسين بن حمدان. ويتراءى لنا بأس هذا الرجل الذي حمل نفسه، وحارب في كل الأمكنة. فقد قتل العباس بن المعتضدي وحارب تميماً، وأسر هارون الشاري، وهزم ـ ذو الخال ـ في بلاد الشام. وفتح مصر، ومن هناك يصل إلى نجـد في الحجاز، ويحارب في الغورين وينتصر. ثم نراه في بلاد فارس ويقاتل الخارجين هناك، ويذل فيها يوسف بن الديوداذ الخارج بأذربيجان. فعمه بهذه الصورة رجل كل المراحل، وفارس كل الأمكنة.

وإذا كان عمه الحسين بهذه الصورة من القوة والفتوة، فإنّ سيف الدولة رجل حرب أيضاً. وهو فارس قادر، شجاع مغوار. إشارة منه تهيج الجيوش وكلمته مطاعة ونافذة عند الناس.

ولـمـا ثـار سـيـف الـديـن ثـرنـا
كـمـا هَـيَّـجْـتَ آسـاداً غـضـابـا

أسـنـتـه إذا لاقـى طـعـانـاً
صـوارمُـهُ، إذا لاقـى ضـرابـا[1]
دعـانـا والأسـنـة مُـشـرعـاتٌ
فـكـنَّـا عـنـد دعـوتـهِ الـجـوابـا[2]

وإنّ أفعال سيف الدولة فيها الكثير من الإعجازات. وجيشه ينطلق إلى الحرب وكأنه سهام. ومهما تكن الحواجز بينه وبين عدوه، يصل إليه، يحارب وينتصر.

وكـنَّـا كـالـسـهـام إذا أصـابـت
مـرامـيـهـا فـرامـيـهـا أصـابـا[3]
عَـبَـرْنَ بـمـاسـحٍ والـلـيـلُ طـفـلٌ
وجئـن إلـى سـلـمـيـة حـيـن تـابـا[4]
فـلـمـا اشـتـدت الـهـيـجـاء كُـنَّـا
أشـدَّ مـخـالـبـاً، وأحـدَّ نـابـا[5]
وأمـنـع جـانـبـاً، وأعـزَّ جـاراً
وأوفـى ذِمَّـةً، وأقـلَّ عـابـا

---

(١) صوارمه: سيوفه القواطع.
(٢) الأسنة: الرماح.
(٣) راميها: المقاتل الذي يرمي السهم أو الرمح فيصيب.
(٤) الليل طفل: شبه بداية الليل بالطفل الصغير. سلمية: اسم مكان
(٥) الهيجاء: المعركة. أشد مخالباً وأشد نابا: كناية عن الشدة وقوة البأس.

ولا ينسى أبو فراس فخره بنفسه. فحيناً يكون فخره مع الجماعة، وأحياناً يكون فردياً. وذلك نشاهده في قوله:

أنا ابن الضاربين المهام قدماً
إذا كَرِهَ المحامون الضرابا

وفي قوله أيضاً:

ألم تُخْبِرْكَ خيلك عن مقامي
ببالسَ يومَ ضاق بها المقام[1]
بطحنا منهم مرج بن حَجْشٍ
فلم يقفوا عليه ولم يُحاموا[2]
أقولُ لمطعمٍ لمّا التقينا
وقد ولى وفي يدي الحسام
أتجعلُ بيننا عشرين كعباً
وتهربُ سَوْءَةً لك يا غلام[3]

هذه بعض النماذج التي يختلط فيها الفخر الفردي مع الجماعة. وتكون العشيرة أو القبيلة هي المعنية بالقول، فالقوة قوتها، والنصر نصرها، والفرد فيها يمثل المجموع. والمجموع بمثابة فرد واحد.

(١) بالس: معركة خاضها أبو فراس وقاد الجيش بنفسه من منبج.
(٢) بطحنا: قتلنا: مرج بن جحش: قائد جيش الأعداء.
(٣) سوءة: عار.

أما فخره الفردي فيبرز بقوله:

خليليَّ أغراضي بعيد مَنالُها
فَهَلْ فيكُما عَوْنٌ على ما أحاولُ[1]

فمثلي من نالَ المعالي بنفسِهِ
وربَّما غالَتْهُ عنها الغوائلُ[2]

ومنا كُلُّ طلابٍ منِ الناس بالغٌ
ولا كُلُّ سيَّارٍ إلى المجد واصلُ[3]

ويبدو بعد هذا أنَّ للفخر جوانب مختلفة. تطال الفرد، والجماعة. الأقرباء والعشيرة. وهذا ما رأيناه واضحاً في فخر أبي فراس. حيث كان موزعاً بين عدة مواقف أهمها:

١ ـ الفخر الجماعي: وكان ذلك في قومه وعشيرته. وقد جسد فيه معاني القوة والرفعة. والقدرة والمنعة.

٢ ـ فخر بالأقرباء: وهم أعمام الشاعر، القادة الأقوياء الذين خاضوا المعارك من أجل استتباب الأمن. وهم الكرماء الذين وهبوا الناس كثيراً. وساعدوا المحتاجين في أيام الشدة.

---

(١) أغراضي: أهدافي.

(٢) الغوائل: الشدائد، المصائب.

(٣) بالغ: واصل. سيار: المجد السير. المجد: الرفعة.

٣ ـ الفخر بسيف الدولة: وهو من الأقرباء المقربين، إلّا أن الفخر فيه برز في أكثر من قصيدة. فهو العادل، والعالم، والأسد الهصور. والمدافع عن الثغور والمواقع.

٤ ـ الفخر بالذات: حيث أوقفه الشاعر على نفسه. ووصفها بأجمل الأوصاف منها الرفعة والعزة. والكبرياء والعظمة.

الاخوانيات

وأبو فراس واحد من المفجوعين بأهله وأصدقائه، يهمي دموع عينيه وفاء لمن يحب. ويشكو من الدهر المتسلط اليوم، ويتوقع أن يشكوه غداً، لأن تسلطه لا يكف عنه. لذلك يلتفت إلى الإنسان في نفسه، ويحاوره في الواقع الفاجعي مناجياً وشاكياً.

وتبدو المناجاة في الأرق والسهر، في الألم والعذاب، في الحياة القاسية التي يعيشها الشاعر، وقد عايش قساوة الحياة منذ الطفولة، ولم تفارقه الصعاب لحظة من لحظات حياته.

وفي اخوانياته يتجلى الصدق والوفاء، والحب والوداد الذي يكنه لأخوته لأنهم ساعده وعضده. فهو يأنس بحضورهم، ويتعس بغيابهم.

والواقع أن قصائد الاخوانيات لم تكن ذات موضوع واحد، بل تعددت أغراضها وكثرت. وأهم الأغراض التي نلاحظها فيها هي:

١ - **المطلع الغزلي**: وفيه يبث الشاعر آلامه. تلك التي سببتها له حبيبة، سرق خيالها النوم من عينيه، وأبقاه في أرق دائم، واضطراب مستمر.

نفى النومُ مِنْ عيني خيالٌ مُسلِّمُ
تأوّبَ مِنْ أسماءَ، والركبُ نُوَّمُ[1]

ظللتُ وأصحابي عباديدَ في الدجى
ألذُّ بجوّالِ الوشاحِ، وأنْعمُ[2]

وسائلةٍ عني فقلتُ، تَعَجُّبا
كأنكِ لا تدرينَ كيف المتيَّمُ[3]

٢ ـ **الحسرة والألم**: ويتجلى ذلك في الصرخة التي يوجهها إلى أخيه المتوفي. إذ يحمل فيها شحنات نفسه فيها الألم والمرارة. وكيف لا يكون حزيناً ونوائب الزمن لم تترك فلذة من كبده إلّا ورمتها بسهم. والحزن مولد الكآبة، والكآبة جالبة الدموع.

ألا من مبلغ عني الحسين ألوكةً
تضمّنها در الكلام المنظمُ[4]

وأترك أن أبكي عنيك تطيُّراً
وقلبي يبكي والجوانح تلطمُ[5]

لكن بكاءه ليس كبكاء الآخرين، إنه بكاء داخلي، في

(١) تأوب: عاد، رجع.

(٢) عبادبد: فرق من الناس. جوال الوشاح: ناعمة الخصر رقيقة.

(٣) المتيم: العاشق الولهان

(٤) الحسين: أخ الشاعر. الألوكة: الرسالة، وجمعها ألائك

(٥) تطيراً: تشاؤماً.

القلب والضمير. إنه يخشى من انهمار دموعه خوفاً من شماتة الأعداء، فنراه يكتم الحزن ويتجلد ويتصبر، مثلما تصبر غيره من الناس أمام الحوادث الكبيرة أمثال لبيد، وكليب ومالك.

وأظهر للأعداءِ فيكَ جلادةً
وأكتم ما ألقاه واللهُ يعلمُ[1]

وحكمي بكاءُ الدهر فيما ينوبني
وحكم لبيد فيه حول مجرّمُ[2]

وما نحنُ إلّا وائلٌ ومهلهلٌ
صفاءً، وإلّا مالكٌ ومتمّمُ[3]

٣ ـ الحكمة: وهي مذهب في الشعر، ينظم فيه صاحبه بتأثير نظرة فلسفية للكون وحقائق الأشياء. وغاية ما يقال في هذا النوع من الشعر إنه ضرب من النظم الذهني، فيه ناحية تعليمية عظيمة القيمة، ولكنه ليس بالشعر الذي يكون الشعور مداره، والعاطفة أساساً له. وقد صدق ابن رشيق حين قال: «فلا يجب أن يكون الشعر مثلاً كله وحكمة لأنه يقعد صاحبه عن أصحابه لما فيه من صنعة وإكثار من ذلك». يعني هذا أن الشاعر يجب أن يطرق موضوعات العاطفة والشعور لأنه

(١) جلادة: قوة، وصبر. أكتم: أخفي.
(٢) لبيد: شاعر جاهلي بكى أخاه سنة كاملة.
(٣) وائل: كليب. مهلهل: أخوه وقد بكاه في شعره. مالك: هو مالك بن نويرة. متمم: أخوه.

عليهما يبنى الشعر. وإذا كانت الحكمة فتكون في موقف لا تتعداه إلى بقية أغراض الشعر. وفي هذا يقول أبو فراس:

تصاحبنا الأيامُ في ثوب ناصحٍ
ويختلنا منها، على الأمن أرقمُ[1]

وما أغربتْ فيك الليالي وإنها
لتصدعنا من كلِّ شعبٍ وتثلمُ[2]

٤ ـ **الفخر**: من الأغراض المهمة والكثيرة في الشعر العربي. وفي هذا الباب من ـ الاخوانيات ـ نلاحظ أن الفخر يقسم إلى قسمين:

أ ـ **فخر شخصي**: حيث يفخر الشاعر بأخيه أو بنفسه. إذ يقول أبو فراس في أخيه أبو العشائر حينما أسر:

أأبا العشائر، إن أسرت فطالما
أسرتْ لك البيضُ الخفافُ رجالا[3]

لمّا أجلت المهرَ فوق رؤوسهم
نسجتْ له حُمْرُ الثغور عِقالا[4]

---

(١) الأرقم: ذكر الحيات وأخبثها.

(٢) تصدعنا: تبعثرنا.

(٣) أبو العشائر: هو الحسين بن حمدان، أخو الشاعر، كان قد أسر لدى الروم.

(٤) المهر: ولد الحصان. الثغور: مفردها ثغر، يعني المواقع.

ومن فخره بنفسه قوله لأخيه:

ألّا دعوتَ أخاك وهو مصاقبٌ
يكفي العظيم ويدفعُ الأهوالا

ألّا دعوت أبا فراسٍ إنّه
ممن إذا طلب الممنَّعُ نالا

ب ـ **الفخر الجماعي**: وفيه يذوب الفرد بالقبيلة والعشيرة. فيصير واحداً منها، انتصاره انتصارها، وهزيمته هزيمتها. ومن هذا قوله:

ونحن أناسٌ لا تزالُ سراتُنا
لها مشربٌ، بين المنايا ومصطمُ

وأرماحُنا في كلِّ لبّةِ فارسٍ
تُثقِّبُ تثقيبَ الجمانِ وتنظُمُ

سنضربهم ما دام للسيف قائمٌ
ونطعنهمْ ما دامَ للرمح لَهْذَمُ

هذا ما تنطوي عليه ـ الاخوانيات ـ من أغراض وموضوعات. قالها الشاعر في وقت الفَقْدِ. وحاول أن يسترجع الإنسان الكامن فيه ويتذكر مواقع القوة والبأس فرداً كان أم جماعة.

الغزل

وله في الغزل مقام رفيع، وموقع يحسده عليه أتـرابه وأصحابه. حتى إنه فاق وتفوق على كثير من الشعراء في هذا المجال، وأصبح صاحب مدرسة في الغزل، وجانب التشبيب اللاأخلاقي. وكل ما عنده غزل عفيف، تحمله إلينا صهوة كلمات ملونة بنفس طاهرة، وشعور يلفه الحزن، وأحاسيس دفينة فيها الكثير من الكآبة والحزن.

والغزل موضوع قديم في الشعر العربي إذ لا يخلو هذا الباب من ديوان شاعر، ولم يتجنب شاعر من الشعراء القول فيه. وهو من أجمل ما تفيض به النفس البشرية، إنه ألوان الذات المعذبة، والنفس التواقة للقاء حبيب، وربما يكون هذا الحبيب مثلاً، صورة، حلماً، تكمن داخل الشاعر، فتفيض تلهباً، وأرقاً وانتظاراً. وتترصد الزمن وتعتب عليه، لأنه فرق بين المحبين، وباعد الأمكنة بينهم. وكلما كانت صورة المثال راقية، مصقولة في نفس الشاعر، كلما كانت عطاءاته أفضل وأكمل.

ومهما حاولنا التكلم عن هذا الموضوع، فإنه باختصار،

صورة المرأة، المرأة المثال، ذلك الكائن المتحرك المتجدد في نبض الإنسان. والمرأة بتجددها الدائم، رمز من رموز الحياة، والديمومة في الوجود فهي الإنسانة، والأنس، والمؤانسة. وهي كيمياء الأرض، وزهر الربيع، وهي الوطن، والشعب، والأمة. وهي التغيير الدائم في الأساليب والمضامين، وإنها الاستمرار، والمستقبل، والأمل والتفاؤل. وتتجسد هذه المفاهيم والمضامين في الغزل، ولكل شاعر أسلوبه وقاموسه اللغوي الذي يجسد به تلك المفاهيم. ولا نقف على ما بناه إلّا من خلال القصائد التي سنعرضها في هذا الفصل، من شعر أبي فراس في موضوع الغزل..

الحب ميل فطري في النفس البشرية، ووصف المحبوبة والتغني بها إحساس تلقائي. وقد تطور هذا الفن، وتغيرت صوره وأساليبه. ولهذا يشير شوقي ضيف بقوله: «إن الشاعر كان يقصد في القطعة التي يعالجها إلى تصوير حبِّه وما يلقى فيه من وَصَب وعذاب، وبذلك كان تغزله معنوياً أكثر من النسيب القديم، فالشاعر يعنى بحكاية خواطره، وقلما عنيَ بوصف المرأة وصفاً حسياً».

وهذا ما نراه في غزل أبي فراس، الذي أوقف حياته على الحزن والألم، وذلك من أثر سهم أتى صدره، وأصابه.

والسهم هو نظرة الحبيبة التي أوقعته في غنج ألحاظها الفاتنة. ورمته في داء لا شفاء منه.

وَقَفَتْني على الأسى والنحيبِ
مُقْلَتَا ذلك الغزالِ الربيبِ[١]
كُلَّما عادني السَّلْوُ رماني
غَنْجُ أَلْحَاظِهِ بسهمٍ مصيبِ
فاتراتٍ، قواتلٌ، فاتناتٍ
فاتكاتٍ سِهَامُها في القلوبِ
هَلْ لِصَبٍّ مُتَيَّمٍ مِنْ مُعينٍ؟
ولداءٍ مُخامرٍ مِنْ طبيبِ؟[٢]

ويتذلل الشاعر ويتودد إلى حبيبته، بكلمات رقيقة. فيها العفة والطهارة حتى في وصفه المادي لجسدها وفمها وقدها.

كُنْ كما شئْتَ مِنْ وصالٍ وهَجْرٍ
غيرُ قلبي عليكَ غيرُ كئيبِ
لك جسمُ الهوى وثغر الأقاحي
ونسيمُ الصَّبا وقدُّ القضيبِ[٣]

---

(١) الأسى: الحزن. النحيب: البكاء.
(٢) الصب: المحب، المشتاق.
(٣) ثغر: فم.

والمحب الولهان يعيش مع الألم والدموع. لأن البكاء في مثل هذه المواقف راحة من ألم. ويكابد الشوق، إذ يعتبر هذه المكابدة جهاد من أجل الحبيبة.

يا خليليَّ، خلياني ودمعي
إنَّ في الدمع راحةَ المكروبِ
ما تقولان في جهادِ مُحِبٍّ
وَقَفَ القلبُ في سبيلِ الحبيب

وتكون اللوعة في موقف الرحيل، حين يحمل الحبيب نفسه ويبتعد عن حبيبه. والحبيبة التي يبكيها الشاعر ذكية فطنة. ولهذا يهديها خالص الود، وصادق الوعد. ويقول إنه محافظ على ما بينهما من وعود.

خالصُ الودِّ صادقُ الوعد أنسي
في حضوري محافظٌ في مغيبي

ولا ينسى ألمه وحيرته، وما تهديه إليه من عذاب مزهر كالرياض الجميلة «جادها فكره بغيث سكوب». وقد وردت تلك المعاني إليه بكل أنس وحسن وطيب.

كلَّ يومٍ يهدي إليَّ رياضاً
جادها فكرُه بغيثٍ سكوبِ

واردات بكلِّ أنسٍ وبرٍّ
وافداتٍ بكلِّ حسنٍ وطيبِ

إنّ الرقة في الغزل صفة ملازمة له. لأنه يحمل في ثناياه طبيعة النفس البشرية وأحاسيسها وانفعالاتها الشفافة. إنه لغة الروح الهائمة في عالم الوجد والوله.

وأبو فراس هنا معذب مهموم، لأنه يحاكي الكون بطبيعة الروح المعذبة، والأرق والسهاد. وسبب ذلك طيف الحبيبة الذي طرق بابه في ليل داج، وانتصب أمامه، وعذب حياته. لقد سرقَ النومَ من بين أجفانه، وتركه وحيداً يتقلب على جمر الانتظار. وهنا تكمن الحيرة ويتجدد الأسى عند الشاعر، ويأخذه الصراع في اتجاهين: الواجب والحب، والأمر والنهي. فالحب يأمره، وعفة النفس تزجره. ويبقى بين النقيضين ممزقاً هائماً، إلى أن يعلل نفسه بالصبر، لعلّ الفرج يأتيه ويحل له المشكلات.

كيفَ السبيلُ إلى طَيْفٍ يُزاوِرُهُ
والنومُ، في جملة الأحباب هاجِرُهُ[1]
الحبُّ آمره والصونُ زاجِرُهُ
والصبرُ أوّلُ ما تأتي أواخِرُهُ[2]

(١) السبيل: الطريق. طيف: خيال.
(٢) زاجره: رادعه، مانعه.

أنــا الــذي إنْ صبــا أو شفَّــهُ غــزلٌ
فــللعــفــافِ ولــلــتــقــوى مــآزرُهُ

وبالرغم من حالته التي أشرنا إليها، فإنه يبقى وفياً للحب وللمحبين بشكل عام إذ أنه يعتبر أهل الحب من أشرف الناس وأنبلهم، وأفضلهم مكانة.

وأشــرفُ النــاسِ أهــل الحبِّ منــزلــةً
وأشــرفُ الحبِّ مــا عــفتْ ســرائــره[١]

إنه في حالة من الأرق والسهر. حتى يظن أن الليل طال وتطاول، ولا تنتهي ظلمته الخارجية، التي عكست حالها على نفسه، وجعلتها في ظلمة وكآبة وحزن. والليل عنيد وكثيف، لا يتزحزح ولا يحيد. جَمُدَ في مكانه حتى ألهب الذات وأوجع الفؤاد. والأرق يحمل التعب الجسدي والنفسي، وحينها لا ينفع صبر ولا تجلد. ولا بد من الانهيار تحت وطأة الأحداث المتعبة والمهلكة، ويكون الدمع والبكاء وسيلة الضعيف في ليل مظلم، ونفس سوداء.

مــا بــالُ لــيلي لا تــســري كــواكــبُــهُ
وَطَــيْــفُ عِــزِّهِ لا يــعــتــاد زائِــرُهُ

---

(١) سرائره: داخله، وجدانه.

مَــنْ لا يــنــامُ فــلا صــبــرٌ يــؤازره
ولا خــيــالٌ عــلى شَــحْطٍ يــزاورُهُ

يــا ســاهــراً لعبثْ أيــدي الفــراق بــه
فــالصبــرُ خــاذِلُــهُ والــدمــع نــاصــرُهُ

وحتى تكتمل صورة العذاب، يجمع أبو فراس النقيضين، والضدين في آن واحد. فهو مؤرق ساهر، وحبيبته نائمة مرتاحة الضمير والوجدان.

إنَّ الـحبـيـبَ الـذي هـامَ الـفـؤادُ بــه
ينــامُ عن طـولِ لَيْــلٍ أنتَ ســاهــرُهُ[1]

والذي يزيد التهاب الشوق، عدم استطاعته نسيان الماضي، يوم وداع الأحبة، حيث اختلطت الدموع بالشوق والمحبة. وبكلمات الحبيبة التي كانت تخشى لحظة الوداع والفراق.

مــا أنسَ لا أنسَ يــوم البيـن مــوقفنــا
والـشــوقُ يَنهي الـبكــا عنِّي ويــأمُــرُه

وقــولــهــا ودمــوع الــعــيــنِ واكــفــةٌ
هــذا الفــراقُ الــذي كنــا نحــاذرُهُ[2]

---

(١) هام: من هيام وهو شدة الحبّ والوله.

(٢) واكفة: نازلة، سائلة.

ويتساءل في ليله الكئيب عمن يخبره عنها. وقد ابتعدت ورحلت. ولا يجد أمامه سوى الحادي. فيحمله السلام والأشواق، وكل ما في الصدر من حب وهيام. ويوصيه أن يذكر اسمه أمامها، ويسألها عن الوعد الذي كان بينهما لحظة الفراق المرير.

هــل أنتِ يـا رفقــةَ العشــاقِ مُخبــرتي
عــنِ الـخـليطِ الـذي زُمَّـتْ أبــاعــرُهُ[1]
وأنــتَ يــا راكبــاً يُــزجــي مــطيَّــتَــهُ
يَــسْتَــطْرِقُ الــحيَّ لـيــلاً أو يبــاكــرُهُ[2]
إذا وصــلــتَ فـعَــرِّضْ بـي وقــلْ لَـهُــمُ
هَــلْ واعِــدُ الــوعْــدَ يــومَ البينِ ذاكــرُهُ

ويتمنى الشاعر أن يحمل الحادي سلامه إليها، لأن بعادها أوحش الدنيا في عينيه. وأصبح حبها عذاباً تمكن من نفسه وأرهقه. لكنه بقي صافي السريرة واضح كالشمس.

هــل أنــتَ مُـبْـلِغُــهُ عــنِّــي بــأنَّ لــه
وُدّاً تــمــكَّــن فــي قــلـبــي يــجــاورُهُ؟

---

(١) الخليط: العشير. أباعر: الجمال. زمت أباعره: كناية عن الاستعداد للرحيل لأزمة ما.
(٢) يزجي: يسوق.

وإنــني مــنْ صَفَــتْ مِنْـهُ ســرائــرهُ
وَصَــحَّ بــاطِـنُــهُ مـنـه وظـاهــرُهُ

ويركز الشاعر على حالة صفاء السرائر، والضمائر. وفي هذا حكمة لأن الحسب والنسب لا يكفيان من أجل حياة صحيحة وسليمة. بل الألفة والمحبة بين الناس، والصدق في القول والفعل، وكل الصفات الإنسانية، هي التي تجعل الإنسان أخٌ للإنسان.

ومــا أخــوكَ الــذي يــدنــو بــه نَسَبُ
لكنْ أخــوكَ الــذي تَصْفُــو ضــمــائــره

وله أيضاً(★):

ومــورَّدٍ، لــمَّــا اسْــتــدَارَ عِــذارُهُ
بــبــديــعِ تَــوْرِيْــدٍ يَــطيــرُ شَــرارُهُ[1]
رَضْبُ الأنــامــلِ، لــو تَــلامَسَ كفُّــهُ
حَــجَــراً لأوْرَقَ يــانــعــاً أثــمــارُهُ[2]

(★) الديوان ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(١) يقول إن وجه الحبيبة مورد تختلط فيه ألوان الحمرة والبياض، وكأنه شرر يتطاير لشدة جماله وصفائه.

(٢) يقول إن أناملها رطبة ـ وهي كناية على نعومتها ـ لو لامست حجراً، لأزهر الحجر وأينعت الأثمار من الشجر اليابس.

لِلنَّـظْمِ نَـظْمِ الـدُّرِ سِمْـطاً، ثَغْـرُهُ
وَبَـهَـارُ ريـحِ الـيـاسـمـيـن بـهـارُهُ[1]
حـتـى إذا عَـبَـثَ الـكـرى بـجـفـونِـهِ
واحـمَـرَّ خَـدَّاهُ، وطـابَ خِـمـارُهُ[2]
وسَّـدتـهُ يُـمْـنَـى يَـدَيَّ ولـم يـزلْ
مِنْ تَحْتِ خَـدِيّ في الـوسـاد يَسَـارُهُ
وَجَعلْتُ أرشـفُ فَضْـلَ ريـقـةِ ثـغْـرِهِ
رَشْـفَ الـمـيـاهِ إذا وَرَدْنَ عِـشَـارُهُ[3]
نَـازَعَـتَـهُ كَـرْخِـيَّـةٍ حَـلَبِـيَّـةً
مـا مَسَّ وكْـفَ عصيـرِهـا عَصَّـارُهُ[4]
قـد طـال مـا اختلسَ القلوبَ بـمُقْـلَـةٍ
فَـتَـنَـتْ، وطـالَ جِـذَارُه ونِـفـارُهُ

يصف حبيبة له. فهي موردة الخدين حتى أصبحت كالنور، يشع وجهها لبهائها وجمالها. أناملها جميلة رطبة. لو لامست بها الحجر يتفجر ينابيع حياة، والشجر اليابس يورق

---

(١) السمط: القلادة. يصف أسنان الفم إذ أنها منظومة كالدر. وريح فمها كأنه الياسمين.

(٢) الكرى: النعاس.

(٣) العشار: الشيء المكرر.

(٤) وكف: سال وقطر.

ويثمر. وثغرها جميل انتظمت فيه الأسنان بدقة وروعة. ورائحة فمها كأنها الياسمين. ويذوب الشاعر في وصفه ويتخيل التيه والغلو حتى مداعبة الكرى أجفان الحبيب قيام على يد الشاعر وهو كالسكران من الوله والحب والهيام. وفي هذه الأثناء كان الشاعر يرشف ريق ثغرها، وهي التي اختلست قلبه وسرقت لبه، بنظراتها الوالهة.

وقال أيضاً:

أخـا عـشـريـن، شـيـب عـارضـيـه
مـريض اللحظ في الحـدق الصحـاح

هو في غزله وجداني رقيق الحس، يتبع القدماء في معظمه. من وقوف على الأطلال، وشكوى، وألم، وتمدح بالعفة. ولعلّ أدل قصيدة على خصائص أبي فراس في هذا الباب مطلع قصيدته:

أراك عصي الـدمـع شيمتـك الصبـر
أمـا للهـوى نـهـي عليـك ولا أمـر

لقد أبلغ في رسم الصور، والانفعالات. والتلاوين الشعورية. فالشاعر هنا يظهر شوقه ولوعته للمحبوب بتستر لأنه مثله «لا يذاع له سر». لا بل يعترف بدموعه إذا جن الليل وأرخى أستاره عليه. وإن كان المحب العصيّ الدمع كما يدعي.

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعاً في خلائقه الكبر

كيف لا. ووصال الحبيب صعب المرام. هذا والحبيبة التي تتلاعب بها أقوال الوشاة.

وقال:

معللتي بالوصل، والموت دونه
إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطرُ

إنها حرقة لاهبة تصعد من صدره، وتختلج في نفسيته، تدعوه إلى مثل هذا التمني الجائر. والظاهر أن حبيبته كانت من أهل البادية. وكان من جراء حب الشاعر لها خصام بينه وبين أهله:

بدوتُ وأهلي حاضرون، لأنني
أرى أنّ داراً لستِ من أهلها قفرُ
وحاربتُ قومي في هواك وإنهم
وإياي، لولا حبك، الماء والخمرُ

وإن الوشاة لم يتركوا أبا فراس وشأنه. بل يقيمون عند كل عمل يقوم به. لهذا تراه كثير الشكوى منهم.

تروغ إلى الواشين فيَّ، وإنَّ لي
لأذناً بها، عن كل واشيةٍ وقرُ

فإن كان ما قال الوشاة ولم يكن
فقد يهدم الإيمان ما شيد الكفرُ

ويصف نفسه بالوفاء، وحبيبته دون ذلك.

وفيتُ، وفي بعض الوفاء مذلَّةٌ
لأنسةٍ في الحيِّ شيمتها الغدرُ

ومن خلال قصائده في هذا الغرض، لا نقف عند اسم محدد لحبيبة محددة عنده. ومن الممكن أن يكون قد أخفى أسماء حبيباته لظروف البيئة المانعة ذلك. وأخفى اسم حبيبته في أهم قصائده في هذا المجال وهي رائيته المشهورة. فالحبيبة أزرت به، وجعلته محطم القلب، مجبل بأحزانه، مقيم مع همومه. وعلمته كيف تكون الشكوى ويكون الخضوع. وإنها تجاهلت قدره، لتحط من عنفوانه. مدفوعة بعظمة شبابها، وزهو فتوتها.

تسائلني من أنت؟ وهي عليمة
وهل بفتى مثلي على حاله نكرُ
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى
قتيلك. قالت: أيهم؟ فهم كثرُ
وقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا
فقلت: معاذ الله بل أنت لا الدهرُ

وما كان للأحزان لولاك مسلك
إلى القلب، لكنّ الهوى للبلي جسرُ
وأيقنت أن لا عزٍّ بعدي لعاشقٍ
وأنّ يدي ممّا علقت به صفرُ
فعدتُ إلى حكم الزمان وحكمها
لها الذنب لا تجزي به ولي العذرُ

إلّا أن الشاعر مهما كان عفيفاً، وإن كان «بالإخاء ضنين». أو مُنِحَ العذر بحسن وفائه، فإنه يثور لكرامته عندما يصبح الحلم غباوة:

هيهات، لست أبا فرا
سٍ إن وفيتُ لمن غَدَرُ

وحقيقة الغزل عنده أنه شاذ عن بقية المولدين، لأنه ابتعد في عزله عن التذلل مثلهم لمن يهوى ويحب. وربما كان الحب عنده وسيلة لبحث همومه:

ووالله ما شببتُ إلّا علالةً
ومن نار غير الحب قلبي يضرمُ

ونقف في شعره على صور من صور المغامرات. وهناك أدلة واضحة على ذلك في ديوانه:

فبتُّ أعلُّ خمراً من رضابٍ
له سكر وليس له خمارُ
إلى أن رقّ ثوبُ الليل عنّا
وقالت: قم فقد بردَ السوارُ
وولتْ تسرق اللحظات نحوي
على فَرَقٍ كما التفت الصوار

والملاحظ أن غزله رقيق، ناعم. جاء عفو الخاطر، وكان مشبعاً بطبيعة الفطرة بعيداً عن الصنعة والتكلف. وممّا زاد من بهاء الغزل عنده كثرة التشابيه في ألفاظه. ومن التشابيه الحضرية الجميلة عنده:

ومرتدٌ بطرّةٍ مُسْبَلةِ الرفافِ
كأنها مُرْسَلَةٌ من زردٍ مضاعف

وهذا أسلوب محدث، فيه الجمال، والبراعة والرونق والخفة والاقتضاب.

وله تشابيه كثيرة بالورد، والغصن والبدر والغزال:
غلام فوق ما أصفُ كأنّ قوامه ألِفُ
إذا ما مال يرعبني أخاف عليه ينقصفُ

وتغلب الصنعة أحياناً على غزله. فتظهر إذ ذاك أنواع البديع. ومن تفننه في توليد التشبيه قوله:

يـا لـيلةً لـستُ أنـسى طـيبـهـا أبـداً
كـأنّ كـل سـرورٍ حـاضـرٌ فـيـهـا
بـاتـت وبـت وبـات الـزقّ ثـالـثـنـا
حتى الـصبـاح لـتسقيـنـي وأسقـيـهـا
كـأنّ سـود عـنـاقـيـدٍ بـلـمـتـهـا
أهـدت سـلافـتهـا خـمـراً إلى فـيهـا

والمعنى في قوله، في بيتيه الأخيرين. . إن شعرها أسود مقصوص على الزي الغلامي، نازل إلى شحمة أذنها. وهو كالعناقيد في تثنيه وتجعده. وكأن حُمرة هذه العناقيد أهدت خمراً إلى فيها.

ومهما كان. فإن غزله عفيف وغير عفيف. فيه الرقة والعاطفة. والصدق والنبل. وموسيقى تتسرب خلال الكلمات والألفاظ، لتشدك إلى عوالم الخلق والروح.

الحكمة:

لأبي فراس أبيات حكمية كثيرة منشورة في تضاعيف قصائده. صاغها في أبيات وأنصاف أبيات. وتدرج فيها من الحكمة البسيطة، والرأي العابر، إلى الحكمة العميقة، والرأي السديد. أما الدوافع التي جعلته يسير في هذا المجال فهي كثيرة. أهمها: العداء الدائم بينه وبين أهله من بني حمدان، إذ كان هذا دفيناً في صدره، يصعد إلى العلاء في لحظات كثيرة من الزمن. ومهما حاول الشاعر إخفاءه، فإنه يطل علينا في أقوال كثيرة. أضف إلى ذلك أسره، وهمومه الكثيرة التي انتابته أثناء ذلك. لا سيما بعدما عرف حقائق كثيرة عن الناس، وعن الأقارب. والحكمة كانت في عصره منتشرة، ذائعة، خاصة عند أبي الطيب المتنبي. والملفت للنظر في حكمته التسليم المطلق لإرادة القدر، لإيمان أن الإنسان مسير إلى نهاية محتومة. وما الحياة إلا دروس كتبت على الإنسان لحظة تكوينه، وعليه أن يتقبلها مهما كانت، لاعتبارها مشيئة الله في خلقه. ومن جميل حكمه هذه الأبيات المتفرقة:

- وإذا المنية أقبلت لم يثنها
جِرْصُ الحريص، وحيلةُ المحتال

ـ عفافُكَ عجزٌ، إنما عفة الفتى
إذا عفَّ عن لذَّاته وهو قادر
ـ سأتي جميلاً ما حييتُ، فإنني
إذا لم أفد شكراً أفدتُ به أجرا
ـ لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها
إذا لم يكن للمبصرين بصائر
ـ لا أشتري بعد التجرب صاحباً
إلّا وددت بأنني لم أشْرِهِ
ـ أنفق من الصبر الجميل فإنه
لم يخشَ فقراً مُنْفِقٌ مِنْ صبره
ـ وأَحَبُّ اخواني إليَّ أبشُّهُمُ
بصديقه في سرّه أو جهره

وله أيضاً:

ـ الدهر يومان: ذا ثبتٌ وذا زلل
والعيش طعمان: ذا صابٌ وذا عسلُ
كذا الزمان فما في نعمة بطرٌ
للعارفين ولا في نقمةٍ فشل

وجاء في يتيمة الدهر. هذه الأبيات الحكمية.

ـ غنى النفس لمن يعقـ
ـل خير من غنى المال

وفضل الناس في الأنف
س، وليس الفضل في الحال

وجاء كذلك:

- المرء نصب مصائب لا تنقضي
حتى يواري جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى في أهله
ومعجل يلقى الردى في نفسه

وله أيضاً:

خفض عليك ولا تكن قلق الحشا
مما يكون وعله وعساه
والدهر أقصر مدة مما ترى
وعساك أن تكفي الذي تخشاه

الروميات

لما أدركت أبا فراس حرفة الأدب، وأصابته عين الكمال أسرته الروم في بعض وقائعها، وهو جريح. وقد أصابه سهم بقي نصله في فخذه. ووصل مثخناً إلى خرشنة، ثم إلى القسطنطينية. وتطاولت مدته بها لتعذر المفاداة. وقد قيل: «على كل نجح رقيب من الأفاق. وقد كانت تصدر أشعاره في الأسر والمرض واستزادة سيف الدولة، وفرط الحنين إلى أهله واخوانه وأحبابه والتبرم بحاله ومكانه، عن صدر حرج، وقلب شج، تزداد رقة ولطافة وتبكي سامعها، وتعلق بالحفظ لسلاستها».

والروميات هي القصائد التي كتبها في أسره، في بلاد الروم. والتي كانت صدى نفسه المعذبة القلقة. وفيها الكثير الكثير من العاطفة والأحاسيس التي يندر وجودها عن غيره من الشعراء، لصدقها وأمانتها. وكانت الروميات أشبه بسجل عذاب، وديوان نفس بائسة متمردة. تعيش القلق والانتظار وتحب الحرية شأنها في ذلك شأن بقية المخلوقات. وهذه الحالة التجربة، صنعت أبا فراس، وأمدته بكثير من الأدوات

الصافية النقية، التي أسبغها على شعره. وممّا جاء في -اليتيمة- من بعض أبيات غير مثبتة في الديوان.

- قد عذب الموت بأفواهنا
والموت خير من مقام الذليل
إنّا إلى الله لما نابنا
وفي سبيل الله خير سبيل

ولما شفيت فخذه من نصل السهم الذي أصابه قال:

فلا تصفنّ الحرب عندي فإنها
طعامي مذ بعتُ الصبا وشرابي
ولججت في حلو الزمان ومره
وأنفقت من عمري بغير حساب

وقال في خرشنة أجمل قصائده الوجدانية. وفيها يتعالى على جراحه، ولا يتهاوى أمام الكوارث، ولا يستسلم للقدر والأحداث. فهو الذي أغار، وحارب الروم، وقاتلهم حتى في خرشنة ذاتها. وأحرق بيوتها مرات عديدة، وروع أهاليها كباراً وصغاراً.

إن زرت خرشنة أسيراً
فكم أحطتُ بها مُغيراً[1]

---

(١) خرشنة: حصن في بلاد الروم. مغيراً: محارباً.

ولــقــد رأيــتُ الــنــار تــنــ
ــتــهــب الــمــنــازل والــقــصــورا
ولــقــد رأيــتُ الــســبــي يُــجــ
ــلبُ نــحــونــا حُــوّاً وحــورا[1]
نــخــتــار مــنــه الــغــادة الــ
ــحــسنــاء والــظبْــيَ الــغــريــرا[2]

ويهون الحادثة على نفسه، فلئن صار أسيراً بخرشنة، وسكن في ليلها المظلم، ولاقى بين جدران سجونها الحزن والألم، فإنه في أيام عزّه كان مسروراً بانتصاراته التي حققها فيها.

إنْ طــال لــيــلي فــي ذُرا
كِ فــقــد نعــمتُ بــه قــصــيــرا[3]
ولــئــن لــقــيــتُ الــحــزن فــيــ
ــكِ فلقــد لقــيتُ بــك الــســرورا

إنه يتحمل الألم. ويعلل نفسه بالصبر، لعلّ الله يفتح عليه باباً من الفرج ويخرج من سجنه. وأمثاله الفرسان لهم

---

(١) الحو: الواحدة حواء، التي في شفتها سمرة. الحور: الواحدة حوراء التي في عينها حور.
(٢) الغرير: الفتى الجميل.
(٣) الضمير عائد إلى خرشنة التي فقد فيها الملذات - إن طال ليلي في ذراك -.

الصدارة والإمارة، أو الأسر والقبر.

ولئن رميتُ بحادثٍ
فلألفينّ له صبورا

صبراً لعلّ الله يفـ
ـتحُ هذه فتحاً يسيرا

من كان مثلي لم يبتْ
إلاّ أسيراً أو أميرا

ليستْ تحلُّ سراتنا
إلا الصدور أو القبورا

ولعلّ أفضل قصائده الوجدانية، تلك التي يخاطب فيها حمامة طليقة. إذ يشخص في تلك القصيدة، حالة إنسانية شاملة، ووضعاً اجتماعياً يتمثل بالصراع بين الحرية والسجن. وتبدو فيها معاني الغربة النفسية التي تخرجه من واقعه الضيق ـ السجن ـ إلى الأماكن الفسيحة، ليخاطب الحزن البشري، والهمّ الإنساني. ويتم ذلك بأسلوب قصصي، يتعالى فيه الحوار ويشتد، ليشكف عن أزمات النفس المعذبة أينما وجدت، وأنّى حلت. وفيها يتعالى الحزن الذي يخلفه الفراق، وكيف لا يحزن وهو الأمير الأسير، الذي انقطع عن سكنه وأهله في ذلك الأفق البعيد (منبج) وحلّ في ظلمة السجن في خرشنة من بلاد الروم.

لذلك نراه يفنى في بُعده دموعه ويستنفد في هجره صبره وسلوانه. وهذه بعض أبيات من القصيدة:

أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ
أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى
ولا خطرتْ منك الهموم ببال[1]

أتحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ
على غصنٍ نائي المسافةِ عالِ[2]

أيا جارتا ما أنصفَ الدهر بيننا
تعالي أقاسمكِ الهمومَ تعالي

تعالي تَريْ روحاً لديَّ ضعيفةً
تردّدُ في جسمٍ يعذّبُ بالِ[3]

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ
ويسكتُ محزون ويندبُ سالِ؟

لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلة
ولكنَّ دمعي في الحوادث غالِ

---

(١) معاذ الهوى: أي أعصم الهوى منك. المعاذ: الملجأ.
(٢) قوادم: الواحدة قادمة، كبار الريش في جناح الطائر. نائي: بعيد.
(٣) تردد: الأصل تتردد، وحذفت التاءُ للتخفيف.

بعد الذي قدمناه نرى أبا فراس يقدم حواراً ظاهراً مع رموز الواقع في عالمه، وحواراً داخلياً مع ذاته، وحواراً خفياً وجلياً مع ربه «صبراً لعلّ الله». واتخذ الشعر شاهداً ينقل محاوراته وأزماته. رسم بالشعر تطلعاته إلى إنسان السعادة خارج حدود السجن والأصفاد. وإنه بمعاناته يحلم بعالم المثل، عالم غير قائم وراء الغمام، بل في التراب الذي نحن فيه. حاول أن يفتح مواسم السعادة في وجوه الناس، ويرسم لعشاق الحرية طرق المكارم.

وأصعب اللحظات عنده، تلك التي يتذكر فيها أمه، حيث تكبر لديه المصائب، ويعزي نفسه بالصبر، علّ الأيام تتغير، والأحوال تحمله إلى الحرية التي يتمناها بعد هذا الألم، الذي أضعف جسده من كثرة الأرق والسهر والتفكير.

مصابي جليلٌ، والعزاءُ جميلُ
وظني بأنَّ الله سوف يديلُ[1]
جراحٌ، تحاماها الأساة مخوفةٌ
وسقمان: بادٍ، منهما ودخيلُ[2]
وأسرٌ قاسيه، وليلٌ نجومه
أرى كلَّ شيء، غيرهنَّ يزولُ

(١) يديل: يبدل الأحوال.

(٢) الأساة: الواحد آسٍ، الطبيب.

وتبدو الحيرة في كلمات الشاعر. الحيرة المعبرة عن اضطراب نفسي، وعدم ركون لحياة قاسية مؤلمة. حتى تخاله يحسب الساعات أياماً طوالاً، بعدها انفض عنه الأهل والأصدقاء في سجنه البعيد. ولم يبق سوى عواطف يحملها كلام رقيق، وشعور مرهف.

تطولُ بيَّ الساعاتُ وهي قصيرة
وفي كلِّ دهرٍ لا يسرُّكَ طولُ
أقلب طرفي لا أرى غير صاحبٍ
يميل مع النعماء حيثُ تميلُ

وبعد هذه الانفعالات اللاهبة. يتوجه بالحديث إلى أمه الصابرة الحزينة. ويدعوها للصبر لأنه مفتاح الفرج، وهو السلاح الوحيد لديه ولديها. ويطلب منها أن تتصبر وتذكر الله، وتكون كما كانت النساء الأوائل أمثال ـ صفية ـ عمة النبي محمد ﷺ، التي كانت عنوان التصبر والإيمان بعد مقتل أخيها حمزة ـ عم النبي ـ في معركة ـ أحد ـ.

فيا أمّتا لا تخطئي الأجر إنَّه
على قَدَرِ الصبر الجميل جزيلُ[1]

(١) لا تخطئي الأجر: أي لا تجعليه يفوتك.

تـأسـي كـفـاك الله مـا تـحـذريـنـه
فقـد غـال هـذا النـاس قبلك غـولُ[1]
وكـوني كمـا كـانـت بـأحـد صفيـةُ
ولـم يشـف منهـا بـالبكـاء غليـلُ[2]

وبعد هذا يخاطب أمه بكل حُنُو ورأفة. وعليها أن تسلم أمرها لله. لأن الإيمان والتقوى هما السبيل للخلاص. وإن مشيئة الله فعلت فعلها وجعلته أسير خرشنة في بلاد الروم.

ومـن لـم يـوقِّ الـلهُ فـهـو مـمـزَّقُ
ومـنْ لـم يـعـزّ اللهُ فـهـو ذلـيـلُ[3]
ومـا لـم يُـرِدْهُ الله فـي الأمـر كـلّه
فـليس لـمـخـلوقٍ إلـيـه سـبـيـلُ

وكتب إلى سيف الدولة هذه القصيدة[★]:

هل تعطفـان على العليل | لا بـالأسير ولا القتيـل
بـاتـت تـقـلبـه الأكـ | ـفُّ سحابة الليل الطويل
يـرعى النجـومَ السـائـرا | تِ من الطلوع إلى الأفول

(١) غال: أخذ وأهلك.

(٢) أحد: معركة شهيرة وقعت بين المسلمين والمشركين. صفية: عمة النبي محمد ﷺ.

(٣) لم يوق: لم يتق.

(★) الديوان ـ ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

فقَدَ الضيوف مكانه ... وبكاه أبناء السبيل
واستوحشت لفراقه ... يوم الوغى سربُ الخيول
وتعطَّلتْ سمرُ الرما ... حِ، وأغمدتْ بيضُ النصول
يا فارج الكربِ العظيـ ... ـمِ، وكاشفِ الخطبِ الجليل
كن يا قويُّ لذا الضعيـ ... ـفِ، ويا عزيزُ لذا الذليل
قرّبه من سيف الهدى ... في ظِلّ دولته الظليل
بَاعدتني في النائبا ... ت وظلّتي عند المقيل
ابن المحبة والذما ... م وما وعدت من الجميل
أما المحب فليس يصـ ... ـغي في هواه إلى عذول
يمضي بحال وفائه ... ويصدُّ عَنْ قالٍ وقيل

في هذه القصيدة حسرة وعتاب. أما الحسرة فهي نابعة من قلب الشاعر المأسور، والذي بقي ظلماً دون افتداء. ويطلب بانكسار العطف من ابن عمه سيف الدولة، لأنه أصبح عليلاً مرهقاً، وبات على أكفّ الأيام والزمن وكأنه ريشة في مهب الريح. لا يعيش مثل الآدميين. فهو مؤرق مسهد يعد النجوم، ويتطاول ليله إلى ما لا نهاية. إنه إنسان معروف فقده الأصدقاء، والضيوف، وهذا دليل الكرم والمكانة الاجتماعية. حتى أن أبناء السبيل بكوه بعدما انقطعت أرزاقهم. ويفخر بنفسه حتى في المواقع الصعبة وربما يكون هذا تعويضاً عمّا هو فيه. إذ أن الخيول لو عرفت الكلام

لتكلمت، ولكنها تحس وتشعر أن فارسها غير موجود، ولهذا تخشى الذهاب إلى المعارك والدخول في ميادين الوغى. وفي القصيدة عتاب على ابن عمه سيف الدولة ويطلب منه المساعدة، من أجل الخلاص. ويسأله عن الوعد، والحب، والذمام، وكأنه يقدم نصيحة لأمير حلب، فيها كثير من الحكمة أي أن المحب الصادق لا يسمع كلام الوشاة، ولا يعير أذنه إلى كلام السوء من جماعة نفوسهم مريضة، يريدون الإيقاع بين الأمير والشاعر.

إنه يضيق ذرعاً بسجنه. وتتكاثف عليه الحسرات التي لم يستطع بَعدُ أن يتحملها، وتكبر المصائب في نفسه خاصة بعدما عرف أنّ أمه وقعت بمرض وأصبحت عليلة. ومعللها بعيد عنها في أيدي الأعداء، بين غياهب السجون.

يا حسرةً ما أكاد أحملها
آخرها مزعجٌ وأوّلُها
عليلةٌ بالشآم مفردةٌ
باتَ بأيدي العدى مُعَلِّلُها[1]
تُمسِكُ أحشاءها على حُرَقٍ
تطفئها والهمومُ تشعلها[2]

(١) معللها: ابنها الذي يخفف عنها وطأة الفراق. والعليلة: هي أم الشاعر.

(٢) الحرق: الآلام. تطفئها وتشعلها. تخمدها بالصبر والتجلد، ولكن الآلام تعود وتشتعل من جديد

إذا اطمأنتْ وأين؟ أو هدأتْ
غَنَّتْ لها ذكرةٌ تُقلقلها[1]

وأمه التي وقعت في مرض وعلة، لا تنفك تسأل عنه الركبان والمسافرين. وذلك من أجل الاطمئنان عن ابنها البعيد القريب. إذ لا شفاء لها من علتها سوى اطلاق سراح ابنها. إنها تسأل عنه بعزة وكبرياء، لا تسأل عن إنسان عادي، بل عن أسد هصور، وفارس مغوار. ويحملهما السلام إليها وهو في خرشنة.

تسألُ عنّا الركبان، جاهدةً
بأدمعٍ ما تكاد تمهلها[2]
يا من رأى لي بحصن خرشنةٍ
أسد ثرىً في القيود أرجلها[3]
يا أيها الراكبان هل لكما
في حمل نجوى يخفُّ محملهُا
قولا لها إن وعتْ مقالكما
وإنّ ذكري لها ليذهلها

(١) وأين: يعني بها أن الاطمئنان شيء بعيد المنال. عنت: بدت. تقلقها. تهزها اضطراباً.

(٢) الركبان: المسافرون.

(٣) خرشنة: قلعة ببلاد الروم يجري الفرات من تحتها، وفيها أسر الشاعر.

يـا أمـتـا هـذه مـنـازلـنـا
نـتـركـهـا تـارةً، ونـنـزِلُـهـا

ولا ينسى الشاعر أن يعاتب ابن عمه سيف الدولة، الذي ماطل وتأخر في افتدائه وفك أسره. وفي عتابه هذا يفخر بنفسه، ويلوم سيف الدولة الذي سمع كلام الوشاة والحساد.

أسـلمنـا قـومـنـا إلـى نُـوَبٍ
أيسـرهـا في القلوبِ أقتلهـا[1]
واستبـدلـوا بعـدنـا رجـال وغىً
يـردُ أدنـى عُـلاي أمـثـلهـا[2]

وبعد هذا ينتقل لمدح سيف الدولة، ويصنه بأوصاف جميلة ورائعة. ويلومه ويعتب لأن الأمير ردّ أم الشاعر ولم يحقق أمنيتها في افتداء ابنها الأسير.

أنـت سـمـاءٌ ونـحـنُ أنـجـمـهـا
أنـت بـلادٌ ونـحـنُ أجـبـلهـا
أنـت سـحـابٌ ونـحـن وابـله
أنـتَ يـمـيـنٌ ونـحـنُ أنـمـلهـا

(١) نوب: مصائب. إشارة إلى سيف الدولة الذي أسلمه هو وصحبه إلى مصائب شديدة.

(٢) الوغى: الحرب. أي أن واحداً من أولئك الذين اختارهم بعدي، يتمنى أحسنهم أن يصل إلى أدنى درجة من همتي ومجدي.

بــأيِّ عــذرٍ رددتَ والــهــةً
عليــك دون الــورى معــوّلهــا[1]

جــاءتــك تــمــتــاح ردَّ واحــدهــا
ينتــظر النــاسُ كيـفَ تقـفلهــا[2]

وبالرغم من هذه المواقف من سيف الدولة، إلا أن أبا فراس يبقى في طاعته ويطلب رضى الأمير.

إنْ كنتَ لـم تبــذلِ الـفــداءَ لــهــا
فــلم أزلْ فـي رضــاكَ أبــذلــهــا[3]

ويحاول أن يثير سيف الدولة، ويدفعه دفعاً لفك أسره وافتدائه، بما يسبغ عليه من صفات حسنة. تجعل سيف الدولة صاحب المودة، والمعالي والرفعة. وهذا مدح يحمل في طياته ألم الفراق، والعتاب المر.

تــلك المــوداتُ كـيف تُـهـمـلهــا؟
تلك المــواعيــد، كيف تغـفلهــا؟

تلك العـقــود التـي عقــدتْ لـنــا
كـيف وقــد أُحْـكِـمَـتْ تـحـلُّلهــا

---

(١) والهة: حزينة. معولها: الذي تعتمد عليه. ـ وفي هذا البيت عتاب ـ.
(٢) تمتاح: تسأل، تطلب. تقفلها: ترجعها.
(٣) لم تبذل الفداء لها: يقصد بها هنا نفسه.

أين المعــالي الـتي عُـرِفْـتَ بهــا
تــقــولـهــا دائــمــاً وتـفــعــلـهــا

ويشير الشاعر إلى كرم سيف الدولة. ذلك الكرم الذي طاول الناس، حتى غـدا الأمير رمـزاً للجود، والـرأفة، ومساعدة الرعية. وبهذه الصفة صار سيف الدولة رمزاً من رموز السؤدد والكبرياء والعظمة. وبعد هذا يتمنى الشاعر أن يكرم عليه الأمير وينهي مأساته في خرشنة. لأن الله أوصى بالأقربين.

لم يبقَ في الـنــاس أمــةٌ عَــرِفَتْ
إلّا وفـضــل الأمـيــر يـشـمــلهــا
نــحــن أحــقُّ الــورى بــرأفــتــه
فــأيـن عـنــا؟ وأيـن معــدِلُـهــا[1]
يــا منفـقَ المــالِ لا يــديــر بــه
إلّا المعــالي الـتـي يؤثِّلُهــا[2]
أصبحت تشــري مكــارمــاً فُضــلاً
فــداؤنــا قــد علمتَ أفـضلُهــا[3]

(١) معدلها: مصرفها.

(٢) يؤثلها: يؤصلها.

(٣) تشري: تشتري. فضلاً: زيادة.

لا يقبل الله قبل فرضك ذا
نافلةً عنده تنفّلُها

في هذه القصيدة الرائعة تتجسد عناوين مهمة:

١ ـ **الحسرة والألم**: نتيجة الأسر والمهانة التي يعيشها الشاعر في سجن خرشنة. ومماطلة ابن عمه سيف الدولة بعدم افتدائه. وهو الفارس القوي الذي أصبح في الأصفاد والسلاسل والقيود.

٢ ـ **تذكر أمه**: إنّ الحنين يحمله بشكل دائم إلى التفكير بأمه المريضة، التي اعتلت صحتها بسبب سجن ابنها. وهذا التذكر فيه من الوجدان والعاطفة الشيء الكثير. حتى يعتبر مثلاً يقتدى في الاحترام والمودة.

٣ ـ **العتاب**: إذ لا ينسى أن يضمن قصيدته عتاباً رقيقاً، وتوبيخاً مبطناً لصاحب السلطة والسلطان في حلب. لأنه لم يعمل شيئاً من أجل فارس بني حمدان، ودوحة البلاط الحمداني. فأهمله سنوات في السجن يعيش الحنين والألم والسهاد.

٤ ـ **المديح**: إنه لا يقطع حبل المودة بينه وبين سيف الدولة. فبعد العتاب نرى أبياتاً في مديح سيف الدولة. يذكر فيها أيامه، وكرمه، وصفات الأمير الحسنة والمحببة، والتي

جعلته سلطة وسلطاناً، وقائداً لبني حمدان تأنس فيه الرعية.

٥ ـ **التعب النفسي**: ونراه واضحاً في كل أبيات القصيدة. وربما كان هو الدافع لالهام الشاعر بهذه المعاني الرقيقة.

نماذج من شعر أبي فراس

يخاطب في هذه الأبيات سيف الدولة(*)

زمـانـي كـلـه غـضـبٌ وعـتـب
وأنـت عـليَّ والأيـام إلـبْ
وعـيش العـالـمين عليك سهـلٌ
وعـيشي وحـده بـفـنـاك صـعـب
وأنـت وأنـت دافـع كـلّ خـطب
مـع الـخـطب الملِمِ عليَّ خـطْب
أمـثـلي تُـقـبـل الأقـوال فـيـه؟
ومـثلك يـسـتـمـر عـلـيـه كـذب؟[1]
وزنـدي وهـو زنـدك ليس يـكـبـو
ونـاري، وهي نـارك، ليس تخبـو[2]
وفـرعي فـرعُـك السـامي المعلى
وأصلي أصلك الـزاكي وحسب[3]

(*) الديوان ـ ص ٢١ ـ ٢٢.

(١) أي إلى متى سيستمر الوشاة بالتفرقة بيني وبينك، وكيف يستطيع الكذبة أن يكذبوا، وهل تصدق قولهم.

(٢) يكبو: ينكفىء، يتراجع، ينهزم. تخبو: تطفأ.

(٣) فرعي: أصلي، أي أنه وابن عمه من فرع واحد.

وأعـمـامـي ربـيـعـة وهـي صـيـدٌ
وأخـوالـي بَـلـصَـفْـر وهـي غُـلـب[١]

وفـضـلـي تـعـجـز الـفـضـلاء عـنـه
لأنـك أصـلـه والـمـجـد تِـرب[٢]

فـلـمـا حـالـتِ الأعـداء دونـي
وأصـبـح بـيـنـنـا بـحـرُ ودرب[٣]

فـقـل مـا شئتَ فـي فـلي لِـسـانٌ
مـليٌّ بـالـثـنـاءِ عـلـيـك رطْـب[٤]

وعـامـلـنـي بـانـصـافٍ وظـلـمٍ
تجـدني في الجميـعِ كـمـا تُحب

وقال مفتخراً بهذه الأبيات. ومناسبة القصيدة هي: «أن مناظرة وقعت بين أبي فراس والدمستق وهو في أسره. فقال له الدمستق: «إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب» فرد عليه أبو فراس قائلاً: «نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام» ثم قال هذه الأبيات(★):

(١) صيد: ملوك كرام.
(٢) ترب: من ولد معك، أي من كان في عمرك.
(٣) حالت: فصلت. درب: أراد بالطريق الذي يفصل بين الدولة الحمدانية وبلاد الروم.
(٤) فلي: انقطع.
(★) الديوان ـ ص ٢٧ ـ ٢٨

أتــزعـمُ يــا ضـخـمَ الـلغــاديــدِ أنـنــا
ونحن أسودُ الحربِ لا نعـرفُ الحربـا[1]

فــويلك من للحــرب إن لم نكن لـهــا
ومن ذا الذي يمسي ويُضحي لها تربا[2]

ومن ذا الـذي يَلُفُّ الجيش من جنباتـه؟
ومن ذا يقــودُ الشُمَّ أو يصـدمِ القلبـا[3]

وويــلكَ مــن أردى أخــاكَ بــمــرعش
وجلل ضَــرْبـاً وجــه والـدك العضْبـا[4]

وويلكَ من خـلى ابنَ أختــك مــوثقـاً
وخــلاّك بــالـلّقــانِ تبتــدر الشِّعبـا[5]

أتــوعــدنــا بــالـحــربِ حتى كــأنـنــا
وإيــاك لم يُعْصَبْ بهـا قلبنــا عصبـا[6]

---

(١) اللغاديد: الواحد لغدود، لحمة في الحلق. والمراد هو كناية عن ضخامة العنق.

(٢) الترب: من كان في عمرك. وهنا كناية عن ممارسة الحمدانيين الحروب حيث نشأوا وإياها.

(٣) يلف: يطوق. الشم: ذوو العزة والأنفة. القلب: أي قلب الجيش.

(٤) أردى: جعله صريعاً. جلل: غطى. العضب: السيف، أي وجه والدك المغطى بالدم والمضروب بالسيف.

(٥) موثق: مقيد. اللقان: بلد بالروم وراء خرشنة. تبتدر الشعب: تتخذ الطرق الملتوية وهذا دليل على فراره وهزيمته.

(٦) يعصب: يربط.

بـأقـلامنـا أُخْجِـرْتَ أم بـسيـوفنـا
وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا[1]
تـركنـاك في بـطن الفـلاة تجـوبُهـا
كمـا انتفق اليـربـوع يلتثم التُّـربـا[2]
تفاخرنا بـالـطعن والضرب في الـوغى
لقد أوسعتك النفس يا بن استها كـذبا[3]

وقال هذه القصيدة[★]:

يـا طولَ شـوقي إنْ قالـوا الـرحيـل غـداً
لا فـرَّق الله فـيـمـا بـيـنـنـا أبـدا
يـا من أصـافيـه في قـربٍ وفي بعـدٍ
ومن أخـالصـه إن غـاب أو شهـدا[4]
لا يُـبعـد الـلهُ شخـصـاً لا أرى أنسـاً
ولا تـطيـبُ لي الـدنـيـا إذا بَـعُـدا

---

(١) أخجرت: أي أقمت في الحجر، ولجأت إلى الأماكن الحصينة خوفاً وفزعاً. وفي هذا البيت رد على كلامهم الدمستق السالف الذكر.
(٢) اليربوع: حيوان قاضم يشبه الفأر، طويل الرجلين، قصير اليدين، طويل الذنب. يلتثم التراب: أي أنه يخفي وجهه بالتراب.
(٣) يابن استها كذبا: الاست: السافلة. وهذا ذم شديد مقذع.
(★) الديوان ـ ص ٥٧.
(٤) أصافيه: أخالصه.

راع الفراق فؤاداً كنت تؤنسه
وذرَّ بين الجفون الدمع والسهدا[1]

أضحى وأضحيتُ في سرٍّ وفي عَلَنٍ
أعدُّه والداً إذ عدَّني ولدا

ما زال ينظم فيَّ الشعر مجتهداً
فضلاً وأنظمُ فيه الشعر مجتهدا

إنْ قصّر الجهدُ عن إدراك غايته
فاعذُر الناس من أعطاك ما وجدا

أبقى لنا الله مولانا ولا برحتْ
أيامنا أبداً في ظلّهِ جُددا

لا يطرق النازلُ المحذورُ ساحته
ولا تمدُّ إليه الحادثاتُ يدا

الحمد لله حمداً دائماً أبداً
أعطاني الدهر ما لم يعطه أحدا

وقال متغزلاً ومفتخراً(★):

أراكَ عصيَّ الدمع شيمتك الصبرُ
أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمرْ

---

(١) ذر: نثر.

(★) الديوان ص ٦٤ وما بعدها.

بلى، أنا مشتاق وعندي لوعةٌ
ولكنّ مثلي لا يذاع له سرُّ
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى
وأذللت دمعاً في خلائقه الكِبرَ[1]
تكاد تُضيء النار بين جوانحي
إذا هي أذكتها الصبابة والفكرُ[2]
معللتي بالوصل، والموت دونه
إذا مِتّ ظمآناً فلا نزل القطرُ[3]
حفظتُ وضيعتَ المودةَ بيننا
وأحسن من بعض الوفاء لك العذرُ
وما هذه الأيام إلاّ صحائفٌ
لا حرفها في كفّ كاتبها بشرُ[4]
بنفسي من الغادرين في الحي غادة
هواي لها ذنب، وبهجتها عذرُ[5]

---

(١) أضواني: أضعفني. خلائقه: صفاته. الكبر: الأنفة.

(٢) الجوانح: الضلوع. أذكتها: أشعلتها. الصبابة: الشوق.

(٣) معللتي: مطمعتي.

(٤) صحائف: الواحدة صحيفة، كتاب.

(٥) غادة: فتاة جميلة هيفاء.

تـروغ إلـى الـواشـيـن فِيَّ وإن لـي
لأذنـاً بـهـا عن كـلِّ واشـيـة وقـرُ[1]

بـدوتُ وأهـلي حـاضـرون لأنـنـي
أرى أنَّ داراً لست مِن أهلهـا قَـفْـرُ[2]

وحـاربـت قـومي في هـواك وإنـهـم
وإيـاي لـولا حـبـك المـاء والـخمـر

تـسـائلني: من أنـت؟ وهي عليمـةٌ
وهـل بفتى مثلي على حـالـه نكـرُ؟

فقلت كمـا شـاءت وشـاء لهـا الهـوى:
قـتـيـلك قـالـت: أَيُّهـم؟ فـهـم كـثـرُ

فـقلت لـهـا: لـو شئت لـم تـتـعـنـتي
ولم تسـألي عني وعنـدك بي خبـرُ[3]

فقـالت: لقـد أزرى بك الـدهـر بعـدنـا
فقلت: معـاذَ اللهِ بل أنتِ لا الـدهـرُ[4]

ومـا كـان لـلأحـزان لـولاك مـسـلكٌ
إلى القلب لكـنَّ الهـوى لـلبلى جسـرُ

---

(١) تروغ: تكذب. الواشين: الحاسدين، الكاذبين.

(٢) بدوت: أقمت في البادية.

(٣) تتعنتي: تطلبين أمراً تغمره المشقة.

(٤) أزرى: أذل.

فـلا تـنكـريـني يـابنـة العم إنـه
ليعـرفُ من أنكـرتـه البـدو والحَضْـرُ
وإنـي لـجـرارٌ لـكـلِّ كـتـيـبـةٍ
معـوَّدة أن لا يُخـلَّ بهـا النـصـرُ[1]
وإنـي لـنـزّالٌ بـكـل مـخـوفـةٍ
كثيـرٌ إلى نُـزّالهـا الـنـظرُ الشّـزْرُ[2]
فـأظمـأ حتى تـرتـوي البيض والقنـا
وأسغبُ حتى يشبـع الـذئبُ والنسـرُ[3]
ولا أصبـح الحيَّ الخـلوفَ بغـارةٍ
ولا الجيش ما لم تـأتـهِ قبلي النُـذرُ[4]
ونـحـن أنـاسٌ لا تـوسط عـنـدنـا
لـنـا الصـدر دون العـالمين والـقبـرُ
تهـون علينـا في المعـالي نفـوسـنـا
ومن خـطب الحسنـاء لم يُغلها المهرُ

---

(١) جرار: الفعل جر، أي قاد. لا يخل بها النصر: أي أنها تنتصر دائماً.
(٢) المخوفة: أرض مخيفة. النظر الشزر: نظر فيه غضب وامتعاض.
(٣) البيض والقنا: أي السيوف والرماح: أسغب: أجوع.
(٤) الحي الخلوف: الحي الذي غاب عنه رجاله. أي انه لا يهاجم أعداءه ما لم ينذرهم.

وقال هذه القصيدة مهنئاً سيف الدولة بإيقاعه بالقبائل العاصية له. ويفخر به، وبنفسه وقومه الوائليين ووقائعهم(★):

لعلَّ خيالَ العامريةِ زائرُ
فَيَسْعَدَ مهجورٌ، ويسعَدَ هاجِرُ

وقد كنتُ لا أرضى من الوصل بالرضا
ليالي ما بيني وبينكِ عامرُ

وإني على طولِ الشِّماسِ عن الصبا
أحنُّ وتُصْبينِي إليك الجآذرُ(١)

وإني إذا لم أرجُ يقظانَ وصلها
ليُقنعني منها الخيالُ المزاورُ(٢)

وفي كِلَّتيَ ذاكَ الخباءُ خريدةٌ
لها من طعان الدارعين ستائرُ(٣)

تقول إذا ما جئتها متدرعاً
أزائرُ شوق أنت أم أنت ثائرُ(٤)

(★) الديوان - ص ٨١ - ٨٢.

(١) الشماس: الاباء. الجآذر: الواحد جؤذر، ولد البقرة الوحشية.

(٢) المزاور: الخيال الذي لا يبرح مخيلتي.

(٣) الكلة: الستر. الخريدة: الفتاة البكر.

(٤) متدرعاً: أي متمنطقاً بالسلاح.

تثنت فغصن ناعم أم شمائل
وولت فليل فاحم أم غدائر
فأمّا رقد طال الصدود فإنه
يقرّ بعينيّ الخيال المزاور
نفى الهمّ عني همّة عدويّة
وقلبٌ، على ما شئتُ منه مظاهرُ[1]
وأسمرُ مما ينبتُ الخطُّ ذابلٌ
وأبيض مما تُطبعُ الهندُ باترُ[2]
ونفس لها في كل أرضٍ لُبانةٌ
وفي كلِّ حي أسرةٌ ومعاشرُ[3]

ويوجه كلامه في هذه القصيدة إلى سيف الدولة(★):

وما كنتُ أخشى أن أبيت وبيننا
خليجان والدربُ الأشمُّ وآلِسُ[4]
ولا أنني أستصحبُ الصبر ساعةً
ولي عنك منّاعٌ ودونك حابسُ

(١) عدوية: نسبة إلى بني عدي.
(٢) الباتر: السيف القاطع.
(٣) لبانة: حاجة.
(★) الديوان - ص ١٠٥
(٤) إن أبيت وبيننا: يوجه كلامه إلى سيف الدولة. آلس: نهر.

شريتك منْ دهري بذي الناس كلهم
فلا أنا مبخوس ولا الدهر باخسُ[1]
وملكتك النفسَ النفيسة طائعاً
وتُبذلُ للمولى النفوس النفائسُ
رفعت عن الحساد نفسي وهلْ هُم
وما جمعوا لو شئتُ إلا فرائس؟
أيدركُ ما أدركتُ إلى ابن همّةٍ
يمارسُ في كسبِ العلا ما أمارسُ
يضيق مكاني عن سواي لأنني
على قمة المجدِ المؤثل جالسُ[2]
سبقت وقومي بالمكارم والعلا
وإنْ رغمتْ من آخرين المعاطسُ

وقال[*]:

أشاقك الطيفُ ألمّ طارقهْ
آخر ليلٍ، لم ينمه عاشقُهُ[3]
والصبحُ في أعقابه يُساوقهْ
طالبُ ثأرٍ من ظلامٍ لاحِقهْ

---

(١) باخس: ناقص، ظالم.

(٢) المؤثل: المتأصل.

(★) الديوان ـ ص ١٩٤.

(٣) الطيف: الخيال. ألم: قصد، زار.

مُزِّقَ عن ضبابه سرادقُهْ

وانجاب عن ثوبِ الظلام غاسقُهْ

مِنْ بعد ما مرَّ مشوقاً شائقه

ونعقتْ بينه نواعقُهْ[1]

ولبستْ من زهره حدائقه

سموط حليٍ فُصِّلتْ عقائقُهْ[2]

وجُرشعٍ عالي التليل أفقه

حاظي مجال الدفتين ناهقُهْ[3]

عبل الشوى تقاربتْ مرافقه

أنجبه، وجيهه ولاحقُهْ[4]

إذا دجا الليلُ وغاب شارقه

وضاق عن عين الصواب بارقُهْ

---

(١) نعقت: أخرجت صوتا كنعيق الغراب

(٢) سموط: الواحد سمط، القلادة

(٣) التليل: العنق

(٤) الشوى: من أعضاء الجسم

أسماء بعض المصادر والمراجع

- النجوم الزاهرة - مروج الذهب
- تاريخ الطبري - ديوان البحتري
- البيان والتبيين - الحيوان.
- ضحى الإسلام - نيكلسون
- ديوان أبو فراس الحمداني

فهرس الموضوعات